HARLEQUIN

روايات احلام

أغنية الريح

آن ويل

www.liilas.com

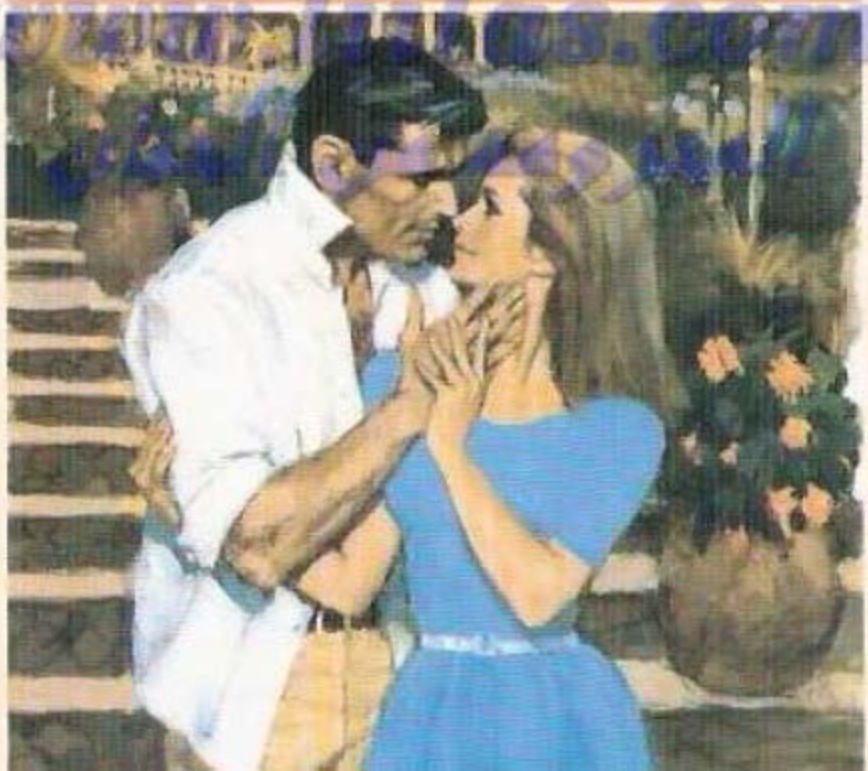

أغنية الريح

ثار «غراي كلدروود» غضباً عندما اكتشف ان أمه استخدمت لديها «لوسيا غراهام»، المرأة التي يعتقد أنها احتالت عليه.

كانت لوسيا تعلم أنها أساءت إلى غراي، لكنها كانت مضطرة ويائسة إلى مساعدة أبيها، وعندما تواجها، عصف الجو بينها وبين غراي. جزء منه كان تنافراً مطبقاً، والجزء الآخر كان تجاذباً محرقاً.

لقد أصدر حكمه القاسي عليها وانتهى... فماذا ستفعل لوسيا لتخترق جدار قلب هذا الرجل القوي؟ وهل سيبقى جدار قلبه هذا منيعاً أمام رقة لوسيا وسحرها؟

www.liilas.com
المزيد من الروايات

ISBN 9953-15-105-9

لبنان: ٢٥٠٠ ل.ل.	البحرين: ١ دينار
سوريا: ٧٥ ل.س.	السعودية: ١٠ ريال
الأردن: ١,٥ دينار	مصر: ٦ جنيه
الكويت: ٧٥٠ فلس	المغرب: ١٥ درهم
الإمارات: ١٠ دراهم	تونس: ٢ دينار
قطر: ١٠ ريال	عمان: ١ ريال

عزيزتي القارئة

إن القصة التي بين يديك الآن مميزة جداً. فهي تصدر في الذكرى الخامسة والأربعين على إصدار أول رواية لي لدى «ميلز أند بونز» سنة ١٩٥٥. وها قد أصبحت «ميلز أند بونز» رائدة الرومنسية للنساء جميعاً أينما كنّ في هذا العالم.

سنة ١٩٥٠ كنت مراسلة في العشرين من عمري تعمل في إحدى الصحف. ألّفت رواياتي السبع الأولى في أوقات الفراغ. وعند اقترابي من الثلاثين استقلت من وظيفتي كصحافية ملتزمة لكي أنشىء عائلة. وقد استوحيت روايتي الأولى بعد الزواج من تجربة الولادة في المنزل عوض الذهاب إلى المستشفى كما هو رائج اليوم. بعدئذٍ تفرّغت تماماً للكتابة، ووزعت وقتي على ساعات العمل ومهمتي التي لا تقلّ أهمية عن التأليف، ألا وهي تربية الأولاد والاهتمام بشؤونهم.

تدور أحداث معظم رواياتي في مناطق غريبة. ومع أنني ما زلت أعشق السفر، إلا أن أكثر أسفاري إثارة هي اليوم عبر الأنترنت. فأنا أستيقظ كل يوم في السادسة صباحاً وأفتح الأنترنت لأتلقى رسائل زملائي عبر البريد الالكتروني. يراسلني الأصدقاء من أطراف العالم كلها. فضلاً عن أنني أجوب المواقع بحثاً عن مواضيع تريح أعصابي وتؤمّن لي هواياتي المفضّلة وهي القراءة.

تلقيت طوال سنوات طويلة رسائل من قرّاء في أفريقيا وأميركا واستراليا والهند وأوروبا. ومؤخراً لم يعد ساعي البريد يحضر لي تلك الرسائل، بل رحت أجدها كل يوم في بريدي الالكتروني وعندما تنتهين عزيزتي من قراءة هذه الرواية، سيسعدني أن أطلع على تعليقاتك.

آن ويل

١ ـ المجرمة

في صبيحة يوم إطلاق سراحها، شعرت لوسيا غراهام بمزيج من البهجة والخوف.

فمنذ أن حكم عليها بالسجن سنة واحدة وهي تتلهف إلى الحرية، ورغم أنها لم تمضِ كامل المدة في السجن وأطلق سراحها باكراً إلا أنها باتت تدرك الآن أن العالم الذي ستعود إليه لم يعد كما تركته. عليها العمل وإعالة نفسها بطريقة لائقة، فمن سيقبل بتشغيل مدانة بجرم.

بعد أن ارتدت ملابسها الخاصة التي فاحت منها رائحة العفن بعد خزن طويل، اقتيدت إلى غرفة مديرة السجن التي بادرتها قائلة: «سوف تشعرين بالخشية، يا غراهام، فحاولي أن تتجاوزي الماضي وإبدأي من جديد. أعرف أن هذا سهل القول وصعب التطبيق. ولكن، لحسن الحظ، هناك شخص سيساعدك على إعادة بناء حياتك».

فسألتها لوسيا بحيرة: «ومن هو؟».

ـ ستعلمين هذا قريباً. هناك سيارة بانتظارك في الخارج. وداعاً وأتمنى لك حظاً سعيداً.

صافحتها المديرة موضحة بذلك أنها لن تفصح عن المزيد.

عندما خرجت لوسيا من فتحة بوابة السجن الضخمة، كانت تتوقع أن تجد بانتظارها سيارة من نوع «الصالون» الصغير الذي يستعمله في العادة موظفو الشؤون الإجتماعية، فهي لم تكن تتوقع أن يساعدها أحد غير إدارة

السجون تلك. أمام بوابة السجن، لم يكن هناك غير سيارة واحدة من طراز «ليموزين» سوداء كبيرة الحجم وحين وصلتها نزل منها سائق بلباس رسمي وتقدم منها قائلاً:

- هل أنت الآنسة لوسيا غراهام؟

- نعم.

- تفضلي هنا من فضلك، يا آنسة.

وقادها إلى سيارة الليموزين وفتح لها باب المقعد الخلفي، ثم أمسك لها الباب لتصعد وكأنها شخصية تحظى بالإحترام وليست نزيلة سجن.

* * *

بعد ذلك بساعة تقريباً، وبعد المرور في قرية جميلة تقع في منطقة بدت مختلفة عن ركب الحضارة الذي يميّز جنوب إنكلترا، دخلت السيارة أراضي منزل قديم تغطي بعضها نباتات زاحفة. بالقرب من المنزل تشعبت الطريق إلى فرعين يلتف إحداهما خلف المبنى فيما ينفتح الآخر على فسحة بيضاوية مرصوفة بالحصى، دار السائق حولها ليقف أخيراً على مسافة أمتار قليلة من الباب الأمامي.

قبل ذلك ببضع دقائق، كانت لوسيا قد لحظت السائق وهو يتصل بواسطة هاتف نقال، ربما ليخبر شخصاً ممن في المنزل بقرب وصولهما. عندما فتح السائق باب السيارة، انفتح باب المنزل وظهرت امرأة.

خرجت لوسيا من السيارة، فرأت امرأة في أواخر الأربعينات من عمرها أو أوائل الخمسينات، ترتدي بلوزة بيضاء وتنورة زرقاء، ويحيط بخصرها النحيف حزام جلدي مجدول. شعرها الأشقر ممشط إلى الخلف ومعقود بشكل كلاسيكي. ولم تضع من الزينة سوى حمرة الشفاه.

- مرحباً بك يا آنسة غراهام، اسمي روز ماري.

مدّت المرأة يدها وصافحت لوسيا بقبضة ثابتة، ثم تابعت قائلة: «لا بد أنك منهكة إلى فنجان قهوة، ادخلي وارتاحي وسأوضح لك الوضع، لا

بد أن الفضول يتملكك لمعرفة سبب مجيئك إلى هنا».

ثم تركت يد لوسيا وأمسكت بمرفقها لتقودها إلى الداخل وكأنها ضيفة عزيزة.

دخلتا ردهة فسيحة يقوم فيها سلم عريض منخفض وقد زينت الجدران بالعديد من اللوحات كما لاحظت لوسيا.

وكذلك لاحظت جدران غرفة الإستقبال حيث وضعت عدة القهوة على مائدة صغيرة قرب نافذة واسعة مطلّة على «شرفة» وحديقة فسيحة جميلة.

دعت المرأة لوسيا للجلوس على مقعد مريح ثم جلست على مقعد آخر، ومدت يدها إلى ابريق القهوة الصيني، وهي تتحدث عن مديرة السجن.

- كنا، أنا والآنسة هاريس، زميلتين في مدرسة واحدة، وهي تصغرني كثيراً. فقد كانت واحدة من التلميذات الجديرات اللواتي كان عليّ رعايتهن عندما كنت في سنتي الدراسية الأخيرة. تقابلنا بعد التخرج في عدة مناسبات وتحدثنا في مختلف الأمور، ولولا معرفتي بها لما استطعت إقناعها بإحضارك إلى هنا.

لم تقل لوسيا شيئاً، فقد بدا لها هذا المنزل بسقفه العالي الرائع الجمال، مفرط الفخامة والترف بالنسبة للمكان الذي قدمت منه. شعرت وكأنها في حلم، قد تستيقظ منه في أية لحظة.

ناولتها المرأة فنجان القهوة قائلة: «أرجوك ضعي بنفسك السكر والقشدة، إن كنت ترغبين».

عندها فقط، أدركت لوسيا أن روز ماري أكبر سناً مما قدرت، ذلك لأن باب المنزل الواقع في الظلّ قد منعها من رؤية الغضون حول العينين وتجاعيد الفم بوضوح.

أما أمام أشعة الشمس، شمس الصباح المتدفقة من النافذة، فقد بدت

www.liilas.com

المرأة، في نحو الخامسة والستين.

قالت المرأة باسمة: «لن أدعك تنتظرين أكثر من ذلك. عندما تركت المدرسة، رغبت أن اكون فنانة. وأثناء سنتي الدراسية الاولى في الكلية، تعرفت إلى زوجي الذي أرادني أن اكون زوجة وأماً، ولأنني كنت غارقة في حبه ويهمني إرضاؤه، فقد تخليت عن طموحي ذاك».

وسكتت لحظة تستعيد ذكرياتها، ثم تابعت تقول: «ومنذ سنتين، مات زوجي. وكمعظم الأرامل، وجدت صعوبة في التعوّد على حياة الوحدة، لدي أربعة أبناء أعزاء للغاية ومتفانون تجاهي في الدعم والمساندة، لكن لديهم حياتهم الخاصة. اقترح أحدهم أن أعود إلى الرسم مرة أخرى. وهذا ما فعلته لذا أنا الآن بحاجة إلى من يصحبني في رحلاتي خارج البلاد للرسم. أنا لا أحب السفر وحدي، ولهذا فكرت في أنك ربما ترغبين بمرافقتي... بصفة مساعدة في الرسم ومرشدة خاصة. ما رأيك بهذه الفكرة؟

رأت لوسيا في هذا العرض نعمة من السماء هبطت عليها، لكنه بالنسبة إلى روز ماري، كان عملاً جنونياً.

حدقت لوسيا فيها بحيرة وسألتها: «وهل يمكنك الثقة بي؟».

- يا عزيزتي، لقد أدانوك بجرم الاحتيال وليس القتل، وبرأيي إن إرسالك إلى السجن كان قسوة لا داعي لها. هناك مواقف تجعل الإنسان مستعداً للتصرف بشكل منافٍ للطبيعة. وأنت وجدت نفسك في احد تلك المواقف. ما فعلته لم يكن صواباً.. ولكنه ليس بالذي ينفيك من المجتمع المدني. هذا هو رأيي أنا، على الأقل.

ما كادت تنهي حديثها حتى انفتح الباب ودخل رجل طويل أسود الشعر يرتدي بذلة أنيقة، ويضع معطفه على ذراعه وقد حلّ ربطة عنقه وفك زر ياقة قميصه.

وعلى وجهه لاحت ابتسامة مرحة لشخص يتوقع أن يجد من يحب

لكن ابتسامته سرعان ما تحولت إلى دهشة وهو يرى لوسيا. بدا واضحاً أنه لم يتعرف عليها، لكنها عرفته على الفور. فكيف يمكن أن تنساه؟ إنه الرجل الذي قام بالدور الأساسي في تقديمها إلى المحاكمة ومنها إلى السجن. نظرات الاحتقار المصوبة إليها وهو يشهد ضدها في المحكمة، حينما وضعت في قفص الإتهام، تستمع إلى الأدلة التي أدت إلى إدانتها، لم تفارق مخيلتها طوال ليالي الأرق التي غالباً ما عانتها وهي تقبع في الزنزانة الموحشة.

- آه، مرحباً يا عزيزي. لم أكن أتوقع أن أراك اليوم.

خاطبته روز ماري وقد بدا عليها التشتت والقلق، ثم التفتت إلى لوسيا:

- هذا ابني غراي. أنها لوسيا غراهام يا غراي.

قامت بتقديمهما إلى بعضهما البعض كما لو أنهما لم يتعارفا من قبل ولا يبدو أن اسمها قد ذكّره بشيء. أثناء المحاكمة، بدا للوسيا وكأنه رجل يتمتع بذاكرة خصبة، لكن اليوم الذي تقابلا فيه، لم يكن مهماً بالنسبة له كما هو بالنسبة إليها، ومن الواضح أنه قد نفاها من ذهنه حالما انتهى أمرها.

كان مظهرها حينذاك مختلفاً عما هو اليوم فشعرها كان مقصوصاً بشكل حديث الطراز، وملوناً. أما الآن فقد صار طويلاً وعاد إلى لونه البني الفاتح. كما كانت أنحف قواماً، وهذا يجعل أكثر الناس لا يتذكرون أنها تلك الشابة التي ظهرت صورها في الصحف الشعبية، والرزينة.

وتقدم إليها. فنهضت لوسيا بشكل غريزي مشجعة نفسها على مواجهة لحظة التعارف، فمدّ إليها يده مصافحاً: «أهلاً وسهلاً».

أرغمت نفسها على الابتسام مجاملة. لكنها لم تجد من الصواب أن تظهر المودة. من الواضح إذاً لماذا لم تذكر روز ماري اسمها العائلي... لأنها أدركت أن لوسيا ما أن تسمعه حتى تفرّ هاربة.

بعد أن ترك غراي يدها، تحول نحو أمه يقبل وجنتها قائلاً: «كان الأسبوع شاقاً فشعرت برغبة في قضاء يوم في الريف».

دخلت الغرفة امرأة بيضاء الشعر تحمل كوباً مع صحنه، فخاطبته: «رأيتك قادماً وأنا في الطابق الأعلى».

ـ شكراً يا برادي.

وتناول منها الكوب وعند مغادرتها الغرفة سكب لنفسه القهوة وهو يخاطب أمه والضيفة معاً: «أرجو ألا أكون قطعت عليكما حديثاً هاماً».

ثم قال مخاطباً لوسيا: «إن سيارتي هي الوحيدة في الخارج. هل أفهم من ذلك أنك تسكنين في جوارنا، يا آنسة غراهام؟».

فقالت أمه: «لوسيا ستقيم معنا هنا. فقد قدمت إليها لتؤي وظيفة رفيقة في الرسم».

ـ آه، أحقاً؟

وترك غراي قهوته ثم سحب كرسياً إلى حيث تجلسان. جلس عليه واضعاً ساقاً على ساق، وهو ينظر إلى لوسيا بتمعن أكثر من ذي قبل.

وفكرت هي بأن لحظة تعرفه عليها قد اقتربت...

وبعد لحظات، انتعشت ذاكرته، وساعده اسمها على ذلك... وسرعان ما تذكر كل شيء.

فظهرت البرودة فجأة في عينيه الرماديتين، ثم قال: «سبق وتقابلنا... في المحكمة. أنت هي المزيفة إذاً».

قالت لوسيا في نفسها: الوداع لنعمة السماء تلك. كان عليها أن تدرك أن ذلك لن يحصل، فالحياة ليست بهذه السهولة وردت بهدوء: «نعم».

ـ وأي مصيبة جعلتك تأتين إلى هذا المنزل؟

لم يرفع صوته، لكن عينيه كانتا تومضان كأشعة ضوئية. فقالت أمه: «لوسيا جاءت إلى هنا تلبية لدعوتي. علمت أنهم سيطلقون سراحها اليوم، فأرسلت جاكسن ليحضرها. كما تعلم، لم أكن مسرورة قط لقرار

المحكمة، لكن الأمر قد انتهى، وهي الآن بحاجة إلى المساعدة لتقف على قدميها، كما أنني أحتاج إلى مساعدة في رحلاتي».

وقبل أن تتمكن الأم من الرد رن جرس الهاتف بجانبها فالتفتت ترفع السماعة، معتذرة من لوسيا: «هالو، ماري... ما أجمل أن أعرف أخبارك، هل لك بالانتظار دقيقة واحدة؟ سأعود إليك حالاً».

وعندها نهضت عن الكرسي، قائلة:

ـ سآخذ التليفون إلى المكتب. أسكبي لنفسك مزيداً من القهوة يا لوسيا.

وبعد قليل، خرجت من الغرفة.

وبردة فعل رجل نشأ في أسرة متمسكة بتقاليد عريقة، وقف غراي احتراماً عند خروج أمه، وبقي على وضعه وهو ينظر إلى لوسيا بعبوس.

ـ لم تمض سنة على الحكم عليك. ما الذي تفعلينه خارج السجن؟

انحنت تحمل إبريق القهوة: «لقد أطلقوا سراحي قبل انقضاء المدة. هل لك بفنجان آخر، يا سيد كلدر وود؟».

فهز رأسه: «هل كانت أمي على اتصال بك في السجن؟».

ـ لا أبداً. هذا الصباح، قبل خروجي من السجن، أخبرتني المديرة أن هناك من يود مساعدتي في إعادة بناء حياتي. كانت سيارة تنتظرني خارج بوابة السجن. تعرفت إلى السيدة كلدر وود عندما جئت إلى هنا.

ـ أمي مفرطة الشهامة والشاعرية، ولهذا تسمح لنفسها أحياناً بأن تفقد السيطرة على تعقلها وصواب حكمها. كان على المديرة أن تفعل أفضل من ذلك، وأن تصلك بالمؤسسات التي تساعد عادة المسجونين الذين يطلق سراحهم. عندما يأخذك السائق جاكسن إلى حيث ترغبين، يمكنك استعمال هاتفه الخلوي والاتصال بالاستعلامات التي بدورها تصلك بمن يفترض بهم مساعدتك.

بذلت لوسيا، وهي تعيد ملء كوبها، كل ما لديها من قوة وتركيز

لمنع يدها من الإرتجاف. قبل القبض عليها وسجنها، كانت واثقة من نفسها وكانت اجتماعية للغاية. أما الآن فهي على ما يرام مع شخص ودود مثل السيدة كلدر وود، لكن، من الصعب عليها التعامل مع الابن بعد أن أصبح عدوانياً بهذه الصورة، فقد كان يوهن من عزيمتها بمجرد أن ينظر إليها. قالت: «أحب أن أقبل العمل الذي قدمته لي أمك».

فقال بحدة: «هذا مستحيل. إذا كانت أمي مصممة على هذه الرحلات، فمن الضروري أن تكون مرافقتها تحمل تزكية لا تشوبها شائبة من مرجع موثوق به، ويعتمد عليها كلياً، وليس امرأة خرجت من السجن لتوّها إثر جرم أخلاقي خطير».

كان في نبرات صوته البرودة ذاتها التي سمعتها في المحكمة.

- لكنه ليس الجرم الأخلاقي الذي يجعلني غير مؤتمنة على تحمل مسؤولية اطفال صغار أو أناس كبار في السن.

- هذا يتوقف على الظروف. وفي رأيي أنت لست بالمرافقة التي تناسب أمي.

- أليس هذا شأنها لتقرر؟

فقال ضاغطاً شفتيه بقوة، وقد توهجت عيناه الرماديتان كحدّ السيف.

- ربما هناك شيء آخر يمكنه إقناعك.

وتناول معطفه من فوق الكرسي الذي وضعه عليه، مخرجاً من جيبه الداخلي دفتر شيكات. نظرت إليه وهو يخرج قلماً ثميناً، ليكتب الشيك فراقبته وهي تتساءل عما يعتبره مبلغاً مناسباً. ورغم أنها كرهت هذا الرجل منذ اللحظة التي دخل فيها إلى المحكمة كشاهد، ونظر إليها عبر قاعة المحكمة وكأنها بمثل حقارة مدمن على المخدرات. لكنها لم تستطع منع نفسها من الإعجاب بأصابعه الطويلة القوية.

وقال وهو يناولها الشيك: «هاك. سيغطي احتياجاتك إلى أن يجدوا لك عملاً».

أخذته لوسيا وقد تملكها الفضول لمعرفة مقدار المبلغ الذي كتبه لها. لم يكن والداها ميسورين حتى وهما يعملان، فوالدها كان مراسلاً لصحيفة محلية مسائية، ووالدتها أمينة مكتبة عامة. لم يحدث قط أن تخلت لوسيا عن حذرها في إنفاق ما تكسبه. ولم تتصور أن بمقدورها أن تكتب شيكاً بثلاثة أصفار بنفس البساطة التي يسقط بها الناس قطع النقود الصغيرة في صندوق للتبرعات.

خطفت أنفاسها ضخامة المبلغ الذي كتبه دون أن يظهر أي نوع من التعاطف. من الواضح أنه لا يقصد بذلك مساعدتها. وما كان يهتم لو أنهم حكموا عليها بعشرة أضعاف تلك المدة. قال بحزم: «ولكن لا تظني أن بإمكانك الحصول مني على المزيد. إنها دفعة لن تتكرر أبداً، وأنا أدفعها لك بشرط أن تختفي من حياتنا ولا تعودي أبداً... وفي هذه الظروف، إنه كرم بالغ مني أن أقدم لك أي مساعدة. فإذا جئت مرة أخرى ستندمين. لأن بإمكاني أن أسبب لك إزعاجاً كبيراً وسأفعل. لذا فالأفضل لك أن تصدقي هذا».

- آه، أنا أصدقه، فقد سبق وسببت لي ذلك.

قالت هذا بجفاء وهي تنتي الشيك إلى اثنين ثم أربعة.

- لقد جنيتِ على نفسك رغم إنني أعلم أنك لن تعترفي بذلك أبداً، وتفضلين أن تصدقي القصة الباكية التي اخترعها محاميك.

لم يكن ثمة فائدة من الجدال معه. فقد كان من النوع الذي يولد ثرياً مما يجعله غير قادر على فهم الأمور التي أدت إلى القبض عليها ومحاكمتها. قاطعه وصول والدته التي بادرت لوسيا: «آسفة لاضطراري إلى تركك».

فقال غراي: «لقد غيرت الآنسة غراهام رأيها بالنسبة إلى العمل الذي قدمته أنت لها. فقد أدركت أنه لا يناسبها».

لم تكن أمه غبية حيث ادركت أن ولدها أراد أن يسير بالأمر حسب

www.liilas.com
المزيد من الروايات

مشيته. لكنها ابدت الأمل قائلة: «هل غيّر غراي رأيك؟ أم أنه قرارك الخاص؟».

وبحركة غريزية فتحت لوسيا كفها تريها الشبك. أرادت أن تتحداه رغم علمها أنه سيكون عدواً خطيراً لها، فقالت: «السيد كلدر وود يريده أن يكون قراري، لكنه ليس كذلك. فإذا كنت واثقة حقاً من انني مناسبة لك، سأكون سعيدة بالعمل عندك».

ـ هذا رائع.

قالت روز ماري هذا متجاهلة صمت ابنها الغاضب، وتابعت: «والآن، أنا واثقة من أنك متلهفة للاغتسال وتغيير ملابسك. وقد أعددت لك بعض الملابس يا ابنتي يمكنك أن تلبسيها كي نخرج للتسوق».

وعادت الخادمة لتسأل: «هل تريدون مزيداً من القهوة؟».

فقالت روز ماري تعرف لوسيا بها: «إنها السيدة برادلي، مديرة المنزل. هذه الآنسة غراهام وهي ستسكن معنا، يا برادلي. هل لك أن تأخذيها إلى حيث تستحم وتغيّر ملابسها قبل الغداء؟».

فقال غراي بحدة: «لحظة واحدة. أمي، أنا لا أتدخل عادة في أمورك الخاصة. ولكن يجب أن أفعل هذه المرة. لا يمكنني أن اسمح لك بتوظيف هذه الشابة عندك».

أظهر من العناد والغضب ما جعل لوسيا تتوقع إذعان أمه لسلطته القوية. فقد سبق واعترفت بأن زوجها الراحل قمع طموح شبابها، وبدا من غير الوارد أن تقاوم ابنها إذا أصرّ على موقفه.

ولكن يبدو أن إرادة روز ماري قد قويت مع تقدمها في العمر فلم تذعن، وقالت بسرور: «أنا أقدر اهتمامك بي، يا عزيزي، لكنني أرجوك أن لا توجه لهجتك المستبدة هذه إليّ. لقد فرض أبوك قانونه مدة خمسين عاماً. ومن الآن فصاعداً سأفعل ما أظنه الأفضل».

وبحركة من يدها أشارت إلى السيدة برادلي ولوسيا بالمضي في

طريقهما، قبل أن تقول لابنها: «أرجو أن تبقى للغداء، يا حبيبي، أنا الطاهية اليوم، وغداؤنا سيكون كستلاتة لحم غنم».

* * *

منذ وقت طويل لم تغتسل لوسيا في حوض دافىء معطر تستمتع فيه على مهل. حتى في اسعد أيامها، لم تكن معدات الحمام وعطوره بمثل هذا الترف، المناشف الجميلة والإسفنجة الضخمة والليفة ذات الأحزمة من ناحية، وقطعة منشفة من الناحية الأخرى. على رف خلف البانيو، وضعت زجاجات وأنابيب لرغوة الصابون وزيوت الاستحمام. لا شيء يحتاجه الإنسان في مجال الاستحمام لم يكن موجوداً هنا، بما في ذلك قلنسوة للدوش معلقة على المشجب، و «روب» حمام معلق على حاجز ساخن قرب الدوش كبديل للمنشفة.

عندما رأت مجلف الشعر الكهربائي، سألت السيدة برادلي إن كان الوقت يسمح لها بغسل شعرها، فأومأت مديرة المنزل بالإيجاب، لأن الغداء يُقام الساعة الواحدة وهذا يعني أن أمامها ساعة كاملة.

كان البانيو مصمماً ليناسب ضيفاً طويل القامة، كان مستطيلاً بما يكفي لتتمدد فيه بكاملها بما في ذلك شعرها. وعند ذلك سمعت نقرة حادة على الباب غير المقفل، ثم دخل غراي كلدر وود.

* * *

٢ ـ السلطة والمال

منعها هول المفاجأة من التحرك. وصرخت فيه ثائرة: «كيف تجرؤ على الدخول بهذا الشكل؟».

فقال بحدة وهو يتأملها بعينيه الباردتين: «وكيف تجرؤين أنت أن تأخذي مني الشيك ثم تنقضين الاتفاق».

حين كانت في السجن، ثمة أوقات تمنت فيها الانزواء بنفسها لشعورها بالضعف والفزع البالغ إزاء عروض المودة غير المستحبة... أما هنا فالأمر مختلف لكنه مزعج أيضاً، كانت تدرك أن ليس هناك احتمال بأن يحاول لمسها، ومع ذلك شعرت بالغضب البالغ.

ـ ستجد الشيك على منضدة الزينة، فلم أكن أنوي صرفه قط. خذه واخرج من هنا.

ـ لن أخرج قبل أن أجعلك تفهمين أمراً. لقد رفضت أمي الإصغاء إلى صوت العقل. ولكن لا تهتني نفسك لوجودك مرفهة هنا. إذا خرجت من هذا المكان ستتمتراً واحداً سأجعلك تندمين على اليوم الذي ولدت فيه، كان الحكم عليك خفيفاً المرة الماضية، ولن أدع هذا يحدث في المرة القادمة، لأنني سأكون حريصاً على ذلك.

تملكها الإغراء في أن تجيبه بكلمات قاسية يفلّ لها شعر الرأس، كانت قد تعلمتها أثناء وجودها في السجن. ولكن، حتى بعد أن قضت

أشهراً بين نسوة كانت لغتهن نجفلها في البداية، لم تستطع أن تحمل نفسها على التلفظ بالكلمات التي تعبر فيها عن عداوتها له، وفي كل حال، إن شتائمها سوف تساعده في تقوية ظنونه بأنها غير مناسبة لمرافقة سيدة مثل أمه. فقالت وهي تبتلع استياءها لموقفه منها الذي لا يقبل الصفح.

ـ أنا شاكرة جداً لأمك لأنها تريد أن تساعدني، ولن أخون ثقتها بي.

فقال وهو يخرج: «انتبهي إذن أن لا تفعلي هذا».

* * *

كان يتحدث مع والدته في غرفة الاستقبال وكأن شيئاً لم يحدث، عندما دخلت لوسيا لتجلس معهما وقد ارتدت بلوزة بيضاء وبنطلوناً كاكياً من الملابس التي قدمت إليها.

حين دخولها نهض غراي واقفاً بحركة آلية. في الواقع، لم يكن يشعر نحوها بأي شهامة أو احترام يبرر وقوفه المهذب لها.

سألتها والدته: «بماذا ترغبين يا لوسيا؟

ـ هل لي بشراب خفيف من فضلك؟

ـ طبعاً. أتريدين عصير البرتقال أم الدراق؟

ـ عصير البرتقال من فضلك.

خطا غراي نحو الخزانة الأثرية التي صفت في قسمها الاعلى الزجاجات والكؤوس، ثم احضر لها كأساً. وبدلاً من أن يناولها إياه، قام بوضعه على طرف منضدة الأريكة التي كانت أمه قد أشارت للضيفة أن تشاركها بالجلوس عليها.

شكرته لوسيا وهي تتساءل عما إذا كان يتصور بأن احتكاكه الجسدي بها وإن كان عابراً، قد يلوثه. وربما لم يضطر في الماضي إلى الاحتكاك الإجتماعي بسجين سابق.

توقعت أنها ستلاقي دوماً أناساً يعتبرونها غير جديرة بالاختلاط في المجتمع وهذا أمر لا بد منه لكن ما لا يمكن توقعه هو مواجهتها موقفاً

كهذا في اليوم الأول لخروجها من السجن.

سألتها روز ماري: «كيف كان الطعام في السجن؟ هل يشبه طعام المدارس الداخلية؟ اعتقد أنه يحوي الكثير من الخضراوات المملة والمبالغ في طهوها».

فأومأت لوسيا: «بطاطا مقلية كيفما إتفق، والقليل من السلطة. ولكن السجن ليس مكاناً للنزهة أو رحلة بحرية ممتعة».

ـ لا، ولكن عليهم تغذية السجناء جيداً. يبدو وزنك أقل مما ينبغي بعدة أرطال. ستتدارك ذلك في اقرب وقت. أنا وبرادي طاهيتان ممتازتان ولدينا حديقة خضراوات واسعة، وهي تغنينا عن الخضار المستنبتة في الخيم البلاستيكية وغير الطازجة التي تقضي اياماً في الطريق إلى «السوبر ماركت». أنا موسوسة قليلاً بمسائل الصحة، ويميل أولادي دوماً إلى المزاح معي بهذا الشأن، لكنني أؤمن بأن صحة الإنسان في غذائه.

من المؤكد أنها تدرك جيداً طبيعة الخصومة القائمة بين ابنها والفتاة التي أصبحت في حمايتها، ولهذا أدارت الحديث بمهارة. فكانت من حين وآخر، ترغم ابنها على الإشتراك في الحديث ولولا وجود غراي، لشعرت لوسيا بأنها في الجنة.

الغرفة الأنيقة، بلوحاتها وتحفها، السجاد الرائع الغريب الذي يغطي أرضها والمزهريات التي تحتوي على أزهار غضة قطفت حديثاً من حديقة المنزل... كل هذا كان بلسماً لحواسها المتعطشة للجمال.

انتقلوا بعدها إلى غرفة الطعام حيث كانت المائدة المستطيلة معدة لثلاثة أشخاص.

سحب غراي كرسياً لتجلس عليه أمه، بينما جلست لوسيا بنفسها.

ثم أحضرت شرائح كستلينة لحم الغنم مزينة بالفلفل الأحمر اضافة إلى أنواع السلطات المختلفة والبصل والصنوبر والنعناع.

وأثناء تناولهم الطعام، سألها غراي فجأة: «هل تضمين الجهاز؟».

وقبل أن تتمكن لوسيا التي أفزعتها عودته المفاجئة إلى العدوانية، من الإجابة، سألته أمه: «أي جهاز؟».

فقال غراي وهو ينظر إلى لوسيا بنفور واضح: «إسأليها تخبرك».

فقالت لوسيا بهدوء: «إنه (جهاز إثبات الهوية) وهو يوضع في المعصم وبحجم ساعة الغواص تقريباً، ولكن بالإمكان وضعه أيضاً حول كاحل القدم. وهو يرسل إشارات إلى جهاز استقبال راديو يسمى (وحدة التحريات) فإذا لم يستطع المكلف بالتحري أن يتقصى الإشارة، يبعث برسالة لاسلكية إلى (مركز التحريات) حيث سجلات المذنبين والأوامر المفروضة عليهم بحظر التجوّل. وبهذه الطريقة يبقى أمثالي ممن خرجوا حديثاً من السجون، قيد المراقبة».

كانت تتحدث إلى السيدة كلدر ووود لكنها توجهت بنظرها مباشرة إلى الابن وتابعت: «أنا لا أضع جهازاً، يا سيد كلدر وود. وربما ظنوا أنه غير ضروري. لذا لم أتلق أي أمر بعدم التجوال».

ـ وربما لم يفعلوا، لكنني أعتقد بأنك لن تجدي نفسك حرة تماماً. من غير المعقول أن شروط إطلاق سراحك تسمح لك بمغادرة البلاد، وإذا لم يكن بإمكانك السفر إلى الخارج، فما فائدتك لأمي؟

لم تكن لوسيا قد وضعت في حسابها هذا الوضع، وتملكها شعور بالخوف من احتمال صحة كلامه.

فقالت السيدة كلدر ووود: «لقد ذكرنا هذا الأمر حين تحدثنا أنا والآنسة هاريس، عن قضية لوسيا. ومن حسن الحظ أن لدي صديقاً في المحكمة، أو لعل من المفيد أنه في وزارة الداخلية، وقد تلطف بالسعي في الأمر سراً. ولأنني شغلت منصب قاضي صلح لمدة عشرين عاماً صدر قرار يسمح لي بالاشراف على حياة لوسيا إلى أن تصبح حرة في الذهاب إلى حيث تشاء، وما دامت معي، فليس هناك قيود على تحركاتها».

لكن ما أعلنته الأم، جعل ابنها أكثر عناداً. إذ كان يعتقد بأنه بمثلك

ورقة رابحة وعندما شعر بالخسارة ثار غضبه، وتساءلت لوسيا عما إذا كان يعرف هو أيضاً أصدقاء نافذين في مراكز رفيعة. خطر لها بأنه رجل ذو إرادة لا تقبل الهزيمة، وكان في تكوين فكه عناد قاس.

انتهى الغداء بحلوى الراوند مع الفشدة. وقالت لوسيا لمضيفتها، وقد نسيت، للحظة، الكراهية التي فرضها عليها هذا الرجل الجالس معهما: «سأتذكر هذا الغداء طوال حياتي. كان الطعام لذيذاً جداً في كافة أصنافه، أما بالنسبة إليّ...».

وأبدت إشارة معبرة...

ـ هذا حسن. يسرّني أنك استمتعت بالطعام. وبما أن النهار دافىء، أقترح أن نأخذ القهوة على «الشرفة» ثم ادعوك لجولة في الحديقة. فمنذ أن غادر الأولاد البيت جميعاً، أصبح العمل في الحديقة هوايتي الأساسية. أما الآن فلم يعد بإمكاني الركوع والإعتناء بها كالسابق، وهكذا أعود إلى الرسم شيئاً فشيئاً.

ـ علي أن أذهب بعد القهوة، ما كان ينبغي علي أن أحضر في الواقع.

ونظر غراي إليها فشعرت بنظرته وكأنها تقول: ولكن لحسن الحظ إنني فعلت ذلك، وإلا لما كنت علمت بأمرك.

وقالت أمه: «أنت تجهد نفسك في العمل. لا تدمن العمل.. كأبيك. ففي الحياة أشياء كثيرة أخرى».

لم تكن لوسيا تعلم ما يفعله غراي بالضبط، إذ لا بد أنه يقوم بعمل مربح للغاية ما دام بإمكانه أن يدفع مبلغاً بستة أرقام ثمناً للوحات الزيتية. وأثناء المحاكمة، وصفته الصحف الشعبية كخبير فني من ملوك المال كما ذكرت أنه يبلغ من العمر ستة وثلاثين عاماً.

وككل الأشخاص الذين يمتلكون ثروات ضخمة وهم في مثل عمره، يبدو أنه قطف ثمار إدمان أبيه على العمل، فمنزل والديه المترف وأمه التي أمضت حياتها كربة منزل، تدلان على حقيقة أن كلدر وود الكبير كان رجلاً

فاحش الثراء.

لم يعلق غراي على نصيحة أمه. فربما اعتاد سماع مثل هذه النصيحة من قبل لذا لم يأخذها على محمل الجد. وهذا يترك انطباعاً بأنه رجل يفعل دوماً ما يراه الأفضل، بصرف النظر عن نصائح الآخرين.

كان من أولئك الناس الذين تقودهم قوى مسيرة جبارة وكانت لوسيا قد عرفت بعضهم. لكن ما هي تلك القوى، وإلى أين تقوده؟ هذا ما لم تعرفه بعد. الأرجح أنها قوى السلطة والمال فهاتان السلطتان تشكلان معاً الدوافع الأكثر جاذبية بين جنس الرجال كما يبدو، لكن لوسيا تفضل الأشخاص الخلاقين المبدعين..

«الشرفة» المرصوفة بالحجر القائمة في الناحية الجنوبية من المنزل، كانت مؤثثة بأرائك وبكراسٍ مريحة من الخيزران، وعندما كانت لوسيا ترشف القهوة، تمنت أن تسند رأسها إلى الخلف وتغفو.

كان يومها مرهقاً... فقد أطلق سراحها، وأخذت بعيداً في رحلة سحرية غامضة، ثم إلى مواجهة مسلحة مع غراي، وكانت مجهدة بقدر ما كان المشهد لا ينسى.

جاءها النوم الليلة الماضية، أما الآن فيصعب عليها إبقاء عينيها مفتوحتين.

* * *

أثناء عودة غراي بالسيارة إلى لندن، لام في نفسه أنه لمساعدة لوسيا غراهام في الوقوف على قدميها.

كان دوره في إحضار تلك المحتالة إلى العدالة قد أقلق أمه، وهو شغوف بها وبأخواته، لكنهن جميعاً يتشابهن في العاطفة والتسامح والإحسان ويجدن أعذاراً لكل جريمة ما عدا تلك التي ترتكب ضد الإنسانية كالقسوة على الأطفال والحيوانات وغيرها.. حتى في تلك الحالات، كن يملن إلى معرفة الأسباب التي جعلت المذنب يرتكب ما

www.liilas.com

فعله.

لم يكن غراي يميل إلى المتعاطفين مع ضحايا المجتمع، وكان يعتبر نفسه رجلاً واقعياً وليس متصلباً لهذا لم يشعر بالندم أثناء المحاكمة لأنه كان الأداة التي ساهمت بفضح الاحتيال ووضع حد له كما حرص على رؤية المذنبة تنال جزاءها. لكنه بعد مقابلته لوسيا بات يشعر بنوع من عدم الارتياح كلما فكر بما عانته.

تذكر المشهد في الحمام وكيف بدت ساعتها وكيف ازداد غيظه وهو يجد نفسه متأثراً بذلك المنظر.

ولأن جسدها أثاره بذلك الشكل، فقد أصرّ على غيه وأصبح يعاملها بغلظة وغضب ربما أكثر مما ينبغي.

وتخيل لوسيا في زنزانة مع نساء شريرات لا يتورعن عن فعل شيء وهي تحاول الهرب منهن فلا تجد لها منفذاً.

أثارت هذه الرؤية المرعبة غضبه واشمئزازه إلى حد أنه لم يشعر بازدياد ضغطه على دواسة الوقود وجعل السيارة تتجاوز السرعة المسموح بها، إلا بعد دقائق.

خفف السرعة، وطرد من ذهنه تلك الأفكار المتعلقة بفتاة لا شأن له بها والتي كانت قد غطت في النوم في آخر مرة رآها فيها حين همست له أمه:

ـ المسكينة مرهقة. لندعها ترتاح ونذهب لنتمشى.

وعندما ودعته بعد ذلك، قالت له: «أرجو أن لا تكون مستاءً مني لأنني خذلتك قبل الغداء. لو كان أبوك مكانك لثار غضباً. لكنني لا أعتقد بأن كبرياءك تشبه حساسية كبريائه، والحمد لله. رغم حبي الكبير له، إلا أنني لم أكن أشعر نحوه دوماً بالمودة، وكما تعلم، لم يكن فط كما ينبغي أن يكون عليه الأزواج، من صداقة ومساواة... أرجو أن تكون أنت وزوجتك كذلك عندما تعثر على واحدة».

والحقيقة التي لم يعترف بها هي أنه غضب عندما عنفته لاستبداده لكن غضبه منها لا يمكن أن يستمر طويلاً، ففي مرات عديدة حينما كان متغمساً في لهو الشباب وقبل أن يتعلم كيف يتعامل مع أبيه المتحكم، كانت تساعده على تفادي الاصطدام بأبيه. كان يعلم أنها دفعت ثمناً باهظاً في سبيل حبها لرجل يدعي دوماً أنه يعبدها، لكنه لم يسمح لها قط بأن تحقق رغباتها الخاصة.

كان غراي يعلم أن امه تتلهف أن تراه مثل شقيقاته يتزوج وينشيء أسرة، لكنه ظلّ يستبعد حصول هذا. لقد استمتع بإقامة علاقات مع عدد من النساء، لكن أي منهن لم تستطع قط أن تغريه بالتنازل عن حريته والزواج، وهو لا يعتقد بأن ذلك سيحدث يوماً.

عندما استيقظت لوسيا وجدت نفسها وحيدة مع روز ماري التي كانت تتلهى بالتطريز.

ـ آسفة.. منذ متى وأنا نائمة؟

ـ أكثر من ساعة. لا حاجة بك للاعتذار فأنت بحاجة للنوم. عاد غراي إلى لندن، إنه يعيش في بيت على النهر وهذا اجمل مكان يصلح للعيش في لندن، لكني لا أحتمل الإقامة فيه أكثر من يومين. يراودني الشعور بالخوف من الأماكن المغلقة فأسارع إلى الريف. سأخبر برادي باستيفاظك وبعد تناول الشاي سنقوم بجولة.

في السابعة مساء تناولنا عشاء خفيفاً وهما تتابعان الأخبار على شاشة التلفزيون وقد وضعنا الطبقين على ركبتيهما. بعد الانتهاء من مشاهدة التلفزيون، قالت لها روز ماري: «لو كنت مكانك لذهبت إلى النوم باكراً. لقد وضعت على منضدة السرير مجموعة كتب اخترتها لك. قد يسرك قراءة أحدها وأنت في سريرك».

قالت لوسيا: «لا أدري كيف أشكرك على إتاحة هذه الفرصة لي، سأبذل جهدي كيلا تندمي».

- أما واثقة بأني لن أندم. تصبحين على خير يا لوسيا. أرجو لك نوماً هانئاً. وغداً سنخطط لرحلتنا الأولى معاً.

وذهلت لوسيا عندما احتضنتها والدة غراي وقبلت وجنتيها.

أثناء مكوثها في السجن، كان بإمكانها إحتمال إرهاب بعض السجانات لها، والسلوك العدائي لبعض السجينات تجاهها. لكن الحنان المفاجيء فقط هو ما كان يضعف سيطرتها على نفسها.

والآن، ها هي تشعر بغصة إزاء لفتة الحنان هذه وامتلأت عيناها بالدموع، ولكنها انتظرت حتى أصبحت في غرفتها، ثم ارتمت على مقعد وثير وانفجرت في البكاء.

بعد أن هدأت، قامت بغسل وجهها وتنظيف أسنانها ثم مشطت شعرها، وارتدت قميص النوم «الفوال» الناعم الذي وجدته فوق السرير المعدّ للنوم، ثم أزاحت الستائر واطفأت النور.

لم تشعر برغبة في القراءة هذه الليلة. أرادت فقط أن تستلقي على هذا السرير المريح وتنظر إلى القمر يطل عليها من النافذة، وهي تحاول تعويد نفسها على ما يحصل من تغيير عجيب في حظها.

أما إمكانية حصولها على رضا غراي، فهذا شيء مشكوك فيه، ذلك لأنها ستظل، كما يرى كثيرون وهو منهم تحمل وصمة عار جرمها بقية حياتها.

عندها، إرتجفت شفتاها وشعرت برغبة في البكاء مرة أخرى، إلا أنها تماسكت وقررت أن عليها ألا تكون ضعيفة. وماذا يهم إذا استمر غراي في احتقارها؟ ذلك الغني المتغطرس.. ما الذي يعرفه عن حياة البشر العاديين. وما يتوجب عليهم تحمله من صعوبات الحياة؟

كان واضحاً أنه ما تعود أن يتحداه أحد. ومن المحتمل أن يلوم لوسيا لأن أمه رفضت تنفيذ رغبته في الغاء خطتها، وربما سيبحث عن وسيلة أخرى ينفذ بها إرادته بالقوة.

إذا فعل ذلك، ستقاومه كما فعلت هذا الصباح عندما حاول رشوتها بالمال كي تتركهم. ومما رأته من تصرفات السيد غراي، كما تدعوه مديرة المنزل، شعرت بأن من المفيد له أن يرفض شخص قريب منه الامتثال لأمره.

* * *

www.liilas.com
الحرية من الحنان

٣ ـ ذبذبات خطرة

استيقظت لوسيا على زقزقة العصافير.

ظلت مستلقية تستمع إلى أغاني الفجر الجماعية في أعماق الريف. وبعد فترة سكتت زقزقة العصافير فعادت إلى النوم مرة أخرى إلى أن أيقظتها اشعة الشمس التي كانت تغمر الغرفة. أحضرت لها مديرة المنزل صينية الإفطار وبعد أن بادلتها تحية الصباح قالت:

ـ تقول السيدة كلدر وود إن عليك بالراحة عدة أيام، وستصعد لرؤيتك بنفسها. هل يمكنك أن تأكلي البيض؟

فقالت لوسيا: «يمكنني أن آكل أي شيء».

بعد أن خرجت المرأة، نهضت من الفراش فغسلت أسنانها وشربت بعض عصير البرتقال.

بعد أشهر من تحمل الافطارات الفظيعة في السجن، تلذذت لوسيا بكل لقمة مما قدم إليها. وكانت تسكب في فنجانها آخر محتويات إبريق الشاي حين سمعت نقراً على الباب، ثم دخلت روز ماري.

ـ صباح الخير. كيف مرت عليك هذه الليلة؟

ـ رائعة. شكراً.

ـ هذا حسن. علمت أن الخروج من السجن كالخروج من المستشفى بعد إجراء عملية جراحية فالأفضل استيعاب الأمور ببطء وهدوء وإعادة التكيف بخطوات متمهلة. فكرت هذا الصباح أن نقوم بنزهة مع الكلاب.

إنها تخص ابنتي الكبرى جوليا وزوجها. وهما في زيارة إلى منطقة في افريقيا يحظر فيها الصيد.

فيما بعد، وهما تتنزهان مع الكلاب، قالت:

ـ ربما تتساءلين لماذا لم ازرك في السجن لأعرفك بنفسي قبل مجيئك إلى هنا.

فقالت لوسيا: «لم أفكر في ذلك».

ـ اعتقدت بأنني ربما أتطفل عليك في الوقت القصير الممنوح لك لرؤية زائرين من معارفك وكذلك وجدت أن من الصعب عقد صداقة بيننا في تلك الظروف.

فقالت لوسيا موافقة: «هذا صحيح».

لم تخبرها بأنه لم يكن لديها زوار. فالذين كانت تتوقع زيارتهم يقطنون في مناطق بعيدة، وبعد أن تخلت عن عملها الأخير للإعتناء بابيها اثناء مرضه الطويل، فقدت صلتها بزملاء العمل أضف إلى ذلك أنهم في المشرنات من أعمارهم. لديهم من مشاغل الحياة ما يغنيهم عن الزملاء.

لكنها لم تشأ التفكير في ما تعلمته من السجن. أرادت أن تترك الماضي وتتشبث بالمستقبل. فسألت: «بالنسبة إلى رحلات الرسم التي ذكرتها أمس.. إلى أين تفكرين في الذهاب؟».

ـ أفكر في أن نبدأ بجزر القنال قبل أن نسافر بعيداً. منذ سنوات، عندما كانت بناتي صغيرات، اشتركت مع صديقات في استئجار منزل يقع في جزيرة سارك لمدة شهر. كان أزواجنا يجيئون إلينا في عطلات نهاية الأسبوع. وفي سنوات أخرى ذهبنا إلى فرنسا. هل تتكلمين الفرنسية يا لوسيا؟

ـ للأسف ليس كثيراً.

ـ لا بأس، فهذا غير مهم، أنا نفسي لا اعرف لغات أجنبية، وكذلك لم يكن زوجي. ولا ادري ممن ورث غراي موهبته اللغوية.

ـ هل يحتاجها في عمله؟

ـ ليس بالضبط. لكن اللغات دوماً ميزة نافعة. إنه يسافر كثيراً، لأجل العمل والترفيه معاً.

• • •

في مكتبه الفسيح على قمة برج على ضفاف النهر في لندن، كان غراي يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وهو يفكر في الفتاة التي كانت قبل ثمانٍ واربعين ساعة مجرد سجينة، فأصبحت الآن المدللة عند أمه الخبيرة في تدليل أي شخص تعتبره بحاجة إلى ذلك.

هناك أشياء أخرى يفترض بها أن تشغل فكره وهو الذي تعود أن تكون حياته موزعة بين اهتمامات مستقلة عن بعضها.

بدلاً من أن يركز أفكاره على الأمور المتعلقة بالعمل، تملكه إحساس قوي بضرورة إيجاد طريقة ما للتخلص من تلك الفتاة التي ستكون مصدر إزعاج كبير له.

ضغط الجرس لاستدعاء سكرتيرته الشخصية ثم عاد للتجول في أرجاء الغرفة، وحين دخلت السكرتيرة وبيدها دفتر الملاحظات، خاطبها قائلاً: «أحضري الملف المتعلق بتلك المحاكمة التي كنت قد اشتركت فيها، يا أليس. وحاولي الاتصال باخي جيني، أريد التحدث معها».

أومأت أليس برأسها ثم انسحبت لتعود بعد لحظات وقد حملت ملفاً وضعته على طاولة المكتب. كان يقلب مجموعة المقالات التي نشرتها الصحف عن القضية، والتي وضعت كل منها في جيب من البلاستيك مع ذكر التاريخ والمصدر، عندما رن أحد تليفوناته، فتناول السماعة: «آلو».

ـ معي السيدة «ونثورث» على الخط، يا سيد كلدر وود.

ـ صليها بي من فضلك. مرحباً يا جيني. كيف حالك.

استمع إلى جوابها، ثم قال: «هل أنت حرة في عطلة نهاية الأسبوع هذه. رائع، إتصلي بالوالدة اذن وتعالي إلى الغداء يوم السبت. أريد رأيك

في آخر أعمالها، يبدو ذلك بعيداً عن الإقناع».

تلقت لوسيا خبر قدوم صغرى بنات روز ماري للغداء، باعصاب متوترة بعض الشيء رغم أنها كانت تدرك إن اجتماعها بالناس شيء لا بد منه وعليها التعود على ذلك.

وإزداد توتر أعصابها عندما أبلغتها السيدة كلدر وود أن غراي قادم هو أيضاً، لكنها حاولت أن تبدو بحالة طبيعية فلا يظهر ذلك على وجهها لذا سألتها: «هل يزورك كثيراً؟».

ـ بقدر استطاعته... لكنه مشغول جداً. توم زوج جيني، أقل انشغالاً منه. إنه مهندس في شركة للأعمال الهندسية، وعمله هو الآخر لا يكاد يخلو من بعض المصاعب، لكن ذلك لا يماثل العبء الثقيل الملقى على كتفي غراي. فالمنافسة الحادة، في هذا الزمن... وإصدار قرارات تؤثر على قوى عاملة ضخمة للغاية كانت من المسؤوليات الكبرى التي تسببت في إنهيار صحة زوجي. لكن غراي يهتم بصحته. كان زوجي يلعب الغولف لكني لا أظنه مفيداً كالسباحة والمبارزة بالسيف، والتدريبات الرياضية التي يهواها غراي.

ـ وما هو عمله؟

ـ كان جده بناءً. لم يكسب مالاً كثيراً من عمله قط، لكنه كان ينفق ما يكسبه في شراء أراض في ضواحي المدن. ربما لم تسمعي بنجم هوليوود السنمائي «بوب هوب» الذي كان مشهوراً جداً في زمنه. لقد كان الممثل المفضل لدى والد زوجي، كان ينفق معظم دخله وقد قرأ عنه في إحدى المرات أنه مثله لكنه لم يستفد من عمله بقدر ما استفاد زوجي روبرت... فقد ساعده ذلك على أن يبسط أعماله في كل الاتجاهات، وعندما انهى غراي دراسته الجامعية، كانت الشركة قد أصبحت إحدى اكبر الشركات في البلد.

سبق للوسيا أن علمت بلهفة السيد كلدر وود لإنجاب طفل إلى جانب

بناته الثلاث وأن روز ماري قد أجهضت مرتين قبل أن تبلغ الرابعة والثلاثين، وأنها حين حملت من جديد، اضطرت لقضاء الشطر الأكبر في أشهر الحمل في السرير. لكنها في النهاية، انجبت الطفل المنشود الذي كان فرحة والديه.

ومع شغفهما الشديد به لا بد أن غراي نشأ مدللاً فاسداً منذ مولده، كما استنتجت لوسيا وتساءلت عن السبب الذي دعاه إلى عدم الزواج حتى الآن. خطرت ببالها فكرة: ربما لا يميل إلى الجنس الآخر. لكنها سرعان ما نفتها من ذهنها. في حياتها العملية وبصفتها فنانة تجارية، تعرفت إلى الكثير من الرجال المنحرفين، وكان من الصعب عليها أحياناً التأكد من ميولهم، ولكن لم يصدر عن أي منهم ذلك النوع من الذبذبات الجاذبة التي تصدر عن غراي. إنها واثقة من أن جميع علاقاته كانت مع النساء، وأنهن كن وسيقين من أجمل الفتيات. رجل في مثل وسامته وثرائه ومركزه، لا يقبل بأقل من جمال وذكاء يمتزجان بامرأة واحدة.

ذهبت روز ماري صباح الأحد إلى كنيسة القرية وسألت لوسيا إذا كانت تود مرافقتها، لكنها اعتذرت رغم أنها لا تتوقع أن تجد في تلك الكنيسة القروية الصغيرة من يتعرف عليها من صورها التي ظهرت في الصحف منذ أشهر. لوسيا لم تكن مستعدة بعد لمواجهة العالم، وحفلة الغداء العائلية ستكون ولا شك محنة حقيقية بالنسبة لها.

منذ وصولها، غسلت وكوت ملابسها الخاصة، الجينز والقميص والكنزة، التي جاءت بها. واليوم ارتدت ثيابها هذه مفضلة إياها على الملابس التي كانت روز ماري قد أعارتها إياها. وكانت ملابسها الأخرى، مع بقية أمتعتها، في المستودع، رغم أنها لا تملك الكثير من المقتنيات فكل أمتعتها لا تزيد عن ثياب قليلة وكتب وأدوات الرسم.

لم تكن السيدة كلدر وود قد عادت من الكنيسة بعد وكانت لوسيا منشغلة باعداد المائدة في غرفة الطعام وفقاً لإرشادات مديرة المنزل،

لتجعل من نفسها نافعة، عندما رأت سيارة قادمة في طريقها إلى المنزل وتبينت عندما وقفت أمام الباب أنها كانت سيارة «جاغوار»، من الطراز الذي كان أبوها يتمنى إقتناءه لو كان لديه ما يكفي من المال. وكان... غراي... هو الذي يقودها وحين خروجه منها، لم يتجه إلى البيت كما هو متوقع بل وقف بإتجاه الحديقة باسطاً ذراعيه وعضلات كتفيه. كان يرتدي ثياباً بسيطة مكونة من بنطلون وقميص أزرق، ويثني كميه إلى منتصف الساعدين.

وكي لا يراها، تراجعت إلى وسط الغرفة وهي تنظر إليه من النافذة. لكنه بدلاً من أن يتوجه نحو الباب الأمامي، استدار حول المنزل، وبعد فترة قصيرة سمعته يتحدث إلى مديرة المنزل من الناحية الأخرى للباب المؤدي إلى المطبخ، وقد منعتها سماكة الباب من سماع ما يقولان.

ثم حين انفتح باب غرفة الطعام ودخل منه، تملكتها الخشية قبل أن تتحكم بأعصابها وتحييه: «صباح الخير».

ـ صباح الخير. عندما تنتهين من هنا، أحب أن أتحدث إليك. سأكون في الشرفة أتناول القهوة.

ثم خرج.

تساءلت عما ستسمعه منه، وهي تتمُّ عملها. كانت قد اختارت باقة من الأزهار، نسقتها في آنية.

وضعَتْ على الطاولة محارم مطرزة بلون الأزهار، كما وضعت أدوات المائدة الفضية، الصحون كانت مصنوعة من الخزف وسطح المائدة المصقول شديد اللمعان، كان يعكس كل شيء مما جعلها تتشوّق لرسمه.

وعندما خرجت إلى الشرفة، رأت غراي واقفاً يرتشف القهوة. فسألها: «هل شربت القهوة؟».

ـ نعم، شكراً.

أشار إليها بالجلوس ثم جلس إلى يمينها.

www.liilas.com

ـ لوسيا، أين كنت ستذهبين؟ المفروض ألاّ يطلقوا سراحك لو لم تتدخل أمي، قبل تأكدهم من وجود بيت يأويك ونقود تنفقين منها

ـ كنت أنوي أخذ إحدى حقائبي والبحث عن نزل يقدم سريراً وفطوراً. فالشقة التي كنت أسكنها قبلاً كانت مستأجرة.

ـ وأين حقيبتك؟

ـ لدي حقيبتان، لكني كنت سآخذ معي تلك التي تحتوي على ملابسي ومجفف الشعر وما أشبه. كنت قد حزمت أمتعتي ووضعتها في مستودع عندما خرجت من السجن بكفالة إلى حين موعد المحاكمة مع وقف التنفيذ، لكنني فكرت أن من الأفضل لي أن أستعد للاسوأ.

ـ ماذا يعني قولك (في المستودع)؟

ـ إنه مستودع للأثاث قريب من سكني القديم.

فرفع حاجبيه: «لماذا، أليس لديك أهل أو أصدقاء؟».

ـ ليس لدي أقرباء، كان كل من والدي وحيداً لأبويه وليس من السهل إيجاد أناس لديهم فسحة في مكان يزيد عن حاجتهم لوضع حقيبتي ثياب لديهم. قد يكون بيتك أوسع بكثير من بيوت معظم الناس، لكن هل تحب أن تتحمل عبء أمتعة أناس آخرين؟

فكر في ذلك لحظة ثم قال: «هذا يعتمد على قوة الصداقة التي تربطنا».

ـ صديقتيّ الحميمتان تسكنان بعيداً حالياً، فإحداهما تعمل في نيويورك والثانية تزوجت من إيطالي وتعيش معه في ميلانو.

ـ وهكذا أنت وحيدة؟

ـ نعم. ولكن لا مشكلة في هذا، معظم الناس يعيشون وحدهم هذه الأيام، يا سيد كلدر وود. العائلات الكبيرة المتقاربة مثل أسرتكم لم تعد هي القاعدة.

فقال عابساً: «أعرف هذا وأتمنى لو أن الأمور ليست كذلك. ما تسير

إليه الحياة لا خير فيه لأحد. إنه يلحق الضرر بالمجتمع كله، كما إنه يشكل جحيماً لحياة الأطفال، ولكن المسؤول عن ذلك ليس جنس الرجال بل النساء فربما ما يزال العالم يحكمه الرجال، لكن الاتجاه الذي يسير فيه هو نتيجة للخطوات التمهيدية التي قامت بها النساء».

ـ ماذا تعني؟

وقبل أن يجيب، سمعا صوت جرس الباب الأمامي، فقال وهو يذهب ليفتح الباب: «لا بد أنها أختي وزوجها».

حملت لوسيا كوب القهوة الفارغ وسارت إلى المطبخ لتغسله وهي تتساءل عما إذا كانت روز ماري قد أخبرتهما عن تاريخها. كانت تريد معرفة ما سيقوله غراي... لو لم ينقطع الحديث بوصولهما، وليس محتملاً أن يعود للحديث في الموضوع ذاته بحضور الآخرين. إنها لا تتوقع أن تنفرد به مرة أخرى هذا النهار.

كانت قد غسلت الكوب وأخذت تنشفه عندما دخلت السيدة كلدر وود من باب غرفة الطعام.

ـ أنا عدت. كيف تسير الأمور يا برادي؟

ـ كل شيء على ما يرام.

ـ هذا حسن. سأحضر لك شرابك، ثم أقدم لوسيا للوافدين، وبعد ذلك أعود لأحضر سلطة التوابل.

أشارت إلى لوسيا لتصحبها، ثم اتجهت إلى الباب المؤدي إلى مؤخرة الردهة.

كانت لوسيا قلقة من ألا يكون بنطلون الجينز مناسباً لحضور حفلة الغداء لكنها شعرت بالارتياح عندما وجدت أن ابنة مضيفتها ترتدي الجينز هي أيضاً، وإن كان الفرق كبيراً بين البلوزتين فبلوزة الابنة كانت من تصميم أشهر مصممي الأزياء ومطرزة بشكل ثمين رائع، فيما بلوزتها كانت عبارة عن قميص تي شيرت وجدته في قسم ملابس الرجال في

www.liilas.com
المزوده من ليلاس

حانوت للصدقات.

وقبل أن تتمكن روز ماري من تقديمها قفزت الابنة واقفة، ومدت يدها إلى لوسيا قائلة: «هاي. أنا جيني... وأنت نزيلة السجون التي لا يبدو عليها ذلك، يسرني لقاؤك. هذا زوجي توم».

مدّ إليها يده، رجل مكتنز الجسم ابتدأ الصلع يغزو رأسه ذو عينين زرقاوين رقيقتين: «مرحباً يا لوسيا، أنا مهندس متزوج من امرأة تتباهى بكلامها الصريح الذي يجعل الناس يقطعون الطريق إلى الرصيف الثاني إذا رأونا نتّجه نحوهم. في أول مرة تعارفنا فيها أخبرتني بأنني أفوح برائحة الثوم».

ـ لكني أحببته رغم رائحة الثوم إلى حد أنني عانقته ذلك المساء، فعاد إلي في اليوم التالي ونحن معاً منذ عشرين سنة.

قالت جيني هذا ضاحكة.

في البداية، فوجئت لوسيا بإشارة جيني إلى سجنها بذلك الإندفاع، أما الآن فهي تشكرها لتصريحها المشهور السريع ذاك كما تشكر توم لمحاولته تغطية ملاحظات زوجته الحمقاء، بالمزاح. من الواضح تماماً أنهما زوجان سعيدان جداً.

سأل غراي:

ـ هل وجدت في السجن من تتخذينها صديقة؟

ـ يكون المرء شاكراً لو وجد في السجن من يصادقه.

قالت لوسيا هذا بهدوء. لكنها تدرك جيداً صعوبة أو ربما استحالة أن نجعل من لم يدخل سجناً قط يفهم الحالة في السجن.

ألقت جيني عدة أسئلة أخرى لكن غراي أسكتها بقوله: «لا تبدأي بتعذيبنا هنا، يا جيني».

ووضع كأساً في يد لوسيا وقال: «كانت أختي صحافية ذات مرة، أو بالأصح مراسلة صغيرة لصحيفة أسبوعية في مدينة صغيرة. كان هذا

سيؤدي بها إلى وظيفة لامعة في لندن، لكنها تعرفت إلى توم فغيرت رأيها».

ردت جيني: «ولم أندم على ذلك قط. لقد استمتعت بالسنوات الثلاث التي عملت فيها بالصحافة. ولكنني أحببت أكثر أن اكون سيدة نفسي. والآن بعد أن انطلق الأولاد، ربما أحاول أن أمارس عملاً حراً».

استلم توم الحديث وأداره باتجاه آخر: «هل قرأتم المقال في صحيفة أمس...؟».

* * *

www.liilas.com
المعرّب من الحنان

٤ ـ جمعهما الدمّ

بعد ذلك بنصف ساعة، كان غراي يتناول طعامه وهو يتساءل متعجباً كيف تدخل لمنع أخته من إلقاء المزيد من الأسئلة على لوسيا وهو الذي تدبر أمر حضورها مع زوجها كي تمارس مهارتها في الحكم على هذه المتطفلة على حياتهم.

شيء ما في وجه لوسيا وهي تجيب على أسئلة جيني، حرك في أعماقه شعوراً غريباً من وخز الضمير فيما من المنطقي أن تشعر هي بذلك.

رفع بصره عن الطعام الذي طهته أمه ونظر نحو لوسيا التي كانت تضحك من شيء ذكره توم. تبدو مع توم مرتاحة مرحة أما معه فتبدو دائماً متوترة حذرة وكأن هكذا عليها أن تكون. تباً لها! فكر بذلك وهو يستعرض كيف أنه بسببها، خسر مبلغاً كبيراً من المال إضافة إلى سمعته باعتباره خبيراً مالياً. كان فقدان المال أسهل عليه من شراء لوحة مزيفة عرضها المنادي في ذلك المزاد باعتبارها النسخة الأصلية للفنان الشهير «جوزيف ادوارد سونال».

لقد تمزقت سمعتهم، أما هو فنالت سمعته ضرر أقل لأن العقل المدبر لكل شيء ما زال يقبع في السجن وسيبقى فيه عدة سنوات أخرى. كان بعيداً عن الموضوع، لأنه، لولا مهارة لوسيا، لما استطاع تنفيذ الأمر.

تساءل غراي عن طبيعة العلاقة بينهما خارج نطاق العمل وفكر أن يسألها عن ذلك فيما بعد أو ربما يطلب من جيني معرفة الحقيقة، فهي أقدر

منه في استخلاص الحقائق لقدرتها على اكتساب ثقة الآخرين.

لا يبدو على لوسيا أنها امرأة ذات خبرة مع الرجال، فلا تبدو عليها الجرأة أو حتى الثقة بالنفس. ردة فعلها تجاه اقتحامه الحمام ذلك اليوم أشبه ما تكون بردة فعل لعذراء. ولكنها ربما كانت تتصنع ذلك. لقد سقطت على قدميها كالقطة، وهي أكثر دهاءاً من إضاعة هذه الفرصة غير المتوقعة في الاستمتاع بحياة مرفهة على حساب شخص آخر.

* * *

في الجهة الأخرى من المائدة، كانت لوسيا تحت المراقبة، وصَعُبَ عليها أن تمنح توم انتباهها الكامل.

لولا وجود غراي لكانت استمتعت بهذا الطعام الرائع. يبدو أن توم وجيني يودان الاعتقاد، وإن من دون برهان، بأنها دفعت ثمن الجنحة التي اقترفتها ولن تكررها مرة أخرى.

وحده غراي من لا يريد الثقة بها كما يبدو.

هل لأنه الوحيد هنا الذي تأثر مباشرة بجريمة الغش التي اقترفتها، إن لم يكن عن سابق قصد فعلى الأقل لرفضها سماع ضميرها؟

أم أن لدى غراي أسباباً أخرى لحذره ليس منها فقط بل من كل نسل حواء؟ الملاحظات التي أوردها قبل حضور أخته عن الإتجاه الخاطىء الذي يسير فيه العالم كنتيجة للخطوات التمهيدية التي قامت بها النساء يشير إلى عواقب حركة المساواة بين الجنسين.

لوسيا تنتمي إلى جيل المساواة الحديث، وهي تعرف أن غراي في السادسة والثلاثين، كما أخبرتها أمه. ربما عندما كان في العشرين من عمره، حين كانت شخصيته أضعف وأرق، واجهته بعض حركات المساواة بعدائية متطرفة أكثر مما هي عليه الآن.

* * *

بعد الغداء، ذهبوا جميعاً في نزهة سيراً على الأقدام.

انطلقوا مجموعة واحدة ما لبثوا بعدها أن تفرقوا فسارت هي وجيني في الخلف، بينما توسطت روز ماري ابنها وصهرها

قالت جيني بابتسامة جانبية: «والآن، بإمكاني أن أستجوبك عن السجن. أكاد أجن فضولاً... ومن لا يكون كذلك؟ هل تمانعين إذا ألقيت عليك بعض الأسئلة؟ إذا كنت لا ترغبين بالحديث عن ذلك سأقفل فمي».

- لا مانع لدي... لكني، أولاً، أريد أن أسألك شيئاً.

- هذا عدل... قولي.

- ما هو شعورك لمرافقتي أمك في رحلات الرسم التي ستقوم بها؟ أعرف أن غراي غير مسرور من هذا الترتيب. فهل تشاركينه تحفظه؟

كانت تتكلم وهي تنظر إلى الثلاثة السائرين أمامهما في الطريق الضيق المعشوشب الذي يتخلل منطقة خاصة تغطيها الغابات، كان أصحابها قد أعطوا روز ماري أذناً بالتنزه فيها.

كانت روز ماري طويلة القامة مثة وسبعين سنتمتراً وهي أطول من لوسيا بخمسة سنتمترات، أما توم فربما كان بطول روجنه على ما يبدو. أما غراي فكان أطول منه بحوالي ستة سنتمترات، ولو لم تكن تعرفه لاعتقدت من طريقته في السير: إنه جندي محترف. كان يبدو كولونيلاً في الجيش أكثر منه رجل أعمال ثرياً.

أغاظها أن تتأثر بقوة بهذا الرجل الذي لا تربطها به أية مودة متبادلة. لا يعني هذا أنها كانت تعيش حياة اجتماعية ناشطة قبل أن تسجن، ذلك لأن الشهور التي أمضتها في تمريض أبيها قد منعتها من ذلك وهي حتى قبل ذلك، حين كانت تعمل في المكتب التجاري، ما كان ليعجبها قط تلك العلاقات العابرة التي تعتبرها بعض زميلاتها ومعارفها طبيعية.

فكرت جيني قليلاً في سؤال لوسيا، ثم أجابت: «غراي يشبه أباه كثيراً. كنت شغوفة بأبي، فقد كان مثالاً ممتازاً للرجل المتفوق، ولا

يخفف من هذا، أن معظم أبناء جيله كانوا كذلك. أنا واثقة من أنه عندما تزوج أمي بقي مخلصاً لها كلياً، ولكنها كانت بحاجة إلى أكثر من كونها جاريته المعبودة وذلك ما لم يكن بخطر بباله. كان سيضحي بحياته من أجلها لو اقتضى الأمر، إلا أنه لم يشأ أن تكون لها حياتها الخاصة التي لا تتمحور حوله، وقد ورث غراي عنه غريزة الحماية تلك على الأقل نحو قريباته من النساء. أثق بقدرة أمنا على الاعتناء بنفسها أكثر منه. هل لديك أية دوافع خفية لوجودك هنا؟».

أضافت الجملة الأخيرة بجرأة، فأجابت لوسيا: «ومن أين لي ذلك وأنا لم أعرف بمجيئي إلى هنا إلا بعد وصولي؟ ما زلت أشعر بأنني أعيش في حلم سأستيقظ منه يوماً فوالدتك لديها من الأسباب ما يدعوها لكرهي أكثر مما لدى الآخرين لأن ابنها تضرر في جملة من تضرروا».

فقالت جيني: «في ماله فقط. لقد شعرت بعد قراءة اليراعين أنك أيضاً كنت ضحية لذلك الرجل الذي ما زال في السجن. هل كنتما على علاقة يا ترى؟».

تذكرت لوسيا ذلك اليوم الذي راودها «أليك» فيه ولأنها كانت تعلم بطبيعته المغرورة بحيث يحاول اصطياد أية امرأة تمثل تحدياً لثقته بنفسه وإرضاء لغروره، فقد رفضت الوقوع في حبه رغم كونه شاباً وسيماً وهي وحيدة ومتعطشة للحب لذا أجابت: «لا. ما بيننا كان مجرد علاقة عمل لا غير».

- ألم يكن لديك صديق حميم قبل السجن ينتظرك عند البوابة حين أطلق سراحك؟

- لا.

- قد أكون مخطئة، لكنني أميل إلى الوثوق بك لمظهرك الخارجي.

وفي النهاية، كان هنالك بوابة أخرى مقفلة بخمسة مزاليج خشبية عليهم اجتيازها. قفز غراي من فوقها بخفة، ثم مد يده إلى أمه التي ارتدت

www.liilas.com

بتطلوناً قبل خروجها فتسلقت البوابة برشاقة ولم تكن بحاجة إلى مساعدة أكثر مما كانت ابنتها جيني.

أما لوسيا فرغم الحبس شهوراً دونما تمرين، إلا أن ذلك لم يمنعها من التسلق. ولكن لسوء حظها أنها تسلقت إلى أعلى البوابة حيث كان المزلاج الأخير قد ضرب بشيء ثقيل ربما لتحريك المزلاج الخشبي، فانشق وأصابت يدها شظية منه.

عندما تابعوا جميعاً سيرهم، نظرت إلى الشظية الحادة المغروزة في أسفل راحتها والتي سال منها الدم.

رفعت يدها إلى فمها وإذا بغراي إلى جانبها يسألها: «ماذا حدث؟».

ـ ليس ثمة مشكلة، مجرد شظية صغيرة.

لا بد أنه كان يراقبها كالصقر مما جعله يلحظ ما حدث لها.

ـ دعيني أرى يدك.

وأمسك بيدها يتفحصها.

ـ لا شيء مهم، سأعالجها عندما نعود.

ـ الأفضل أن تعالجيها الآن. لا تتحركي.

ودون أن يراهما الآخرون، أرغمها على الوقوف ثم عالج الشظية بإبهامه.

كانت أظافره قصيرة نظيفة كأظافر الطبيب، لكنها شعرت بها أشبه بكماشة حديدية، فصرخت (آخ).

ربما كان أكثر الرجال سيتوقفون أو يعتذرون في موقف كهذا. لكن غراي استمر في تعذيبها ثوان أخرى وإن بشكل ألطف قبل أن يقول: «ها قد خرجت».

ثم أظهر الشظية المقدر طولها بنصف انش وهي تلتصق بإبهامه الدامية، قبل أن يلقي بها بعيداً ويمتص الجرح الصغير مسبباً لها المزيد من الدهشة والإضطراب.

تصرفاته تلك جعلت ركبتيها ترتجفان وقلبها يخفق بشدة. كانت يده تمسك بمعصمها وإبهامه على نبضها. لا بد أنه شعر بازدياد سرعته فجأة، وكان ينظر إلى الأرض مركزاً على ما يفعل، قبل أن يرفع أهدابه السوداء فتلتقي نظراتهما. جمدت أساريرهما لحظة، ثم سرى بينهما إحساس متبادل استطاعت قراءته كما لو كان مكتوباً أمامها.

أدرك أن ما كان يفعله قد أثارها، ومعرفته بذلك أثرت عليه أيضاً.

وتملكها الضيق وهي تشعر بالتوهج يصعد إلى وجهها من عنقها حتى منبت الشعر في جبينها. لم تستطع التحكم باحمرار وجهها ولا أن تحول نظراتها عنه.

زال توترهما حين نادتها جيني: «ماذا بكما؟».

بينما توقف الثلاثة عن السير وأخذوا ينظرون إلى الخلف. أبعد غراي يد لوسيا عن فمه لكنه بقي ممسكا بمعصمها وهو ينادي: «أصيبت لوسيا بشظية في يدها عند تسلقها البوابة».

بدأ الآخرون بالعودة، فانتزعت لوسيا يدها من يده وسارت نحوهم، وهي تبحث في جيوبها عن منديل ورقي وتأمل أن يكون احمرار وجهها قد تلاشى: «إنه أمر بسيط... وقد انتهى الآن».

فسألتها الأم: «هل الجرح ينزف؟».

ـ لم يعد كذلك.

قالت لوسيا هذا، لكنها عندما أزاحت المنديل الورقي ظهرت عليه بقعة حمراء، كما رأت نقطة صغيرة من الدم على جلدها، فقالت روز ماري: «أنت بحاجة إلى ضماد فوقها. أنا دوماً أحمل ذلك في بنطلونات السير».

وتحسست جيبها الخلفي وأخرجت منه رقعتي ضماد من البلاستيك ذات ثقوب في وسطها.

تناول غراي إحدى الرقعتين فيما أعادت أمه الرقعة الأخرى. مسحت

www.liilas.com

لوسيا نقطة الدم ومدت إليه يدها ليضع عليها الضماد ثم توجهت بخطابها نحو الأم: «أشكرك كثيراً».

فسألها غراي: «متى كانت آخر مرة أخذت فيها حقنة «كزاز»؟»

لم تكن واثقة متى حدث ذلك، ربما منذ أيام المدرسة فقالت: «لا أدري، لكن لا ضرورة لذلك، إنه مجرد خدش».

فقالت الأم: «قد يكون الخدش خطراً. عندما كان غراي في الجامعة، أصيبت ذراع أحد اصدقائه بخدش بسيط من شجرة ورد نامية قرب حاويات القمامة، وقد استقل القطار إلى سكوتلندا مع بعض الأصدقاء. وعندما وصل هناك كانت ذراعه بأكملها قد تورمت وأصابها الإحمرار فقد أصيب بتسمم في الدم، ولو تأخر في الذهاب إلى الطبيب الذي حقنه بمضادات التسمم فلربما ساءت حالته إلى الموت».

فقالت جيني: «الأفضل أن يحتاط الإنسان كي لا يندم، تلك أمور ما كنت لأقلق بشأنها قط إلى أن بدأ الأولاد برحلاتهم. تسمم الدم ليس مزحة».

قال غراي: «سآخذك إلى الطبيب حالما نعود إلى البيت».

قالت: «لكن اليوم هو السبت».

ـ لن يمانع، فهو صديق الأسرة.

فقالت أمه: «كان جورج لطيفاً كالملاك حين كان زوجي مريضاً. لقد رأيته في الكنيسة هذا الصباح. ولن تأخذ منه اكثر من دقيقتين يا لوسيا».

فقال لها توم غامزاً بعينه: «لقد هُزمت بالإجماع. إسمعي نصيحتي واخضعي لأمرهم فعندما يجمع آل كلدر وود على أمر، فإنهم يصبحون قوة لا تقاوم، وأنا اتكلم عن تجربة».

قالت جيني مازحة: «توم يحب أن يظهر بمظهر الضعفاء، ولكن إذا جدّ الجد، فهو الرئيس، وهو يعلم ذلك تماماً».

فقالت لوسيا: «الجد هو ما يفعله الإنسان أثناء الزلزال مثلاً أو حريق

الغابات أو ما شابه».

ضحكت النسوة، وقرصت جيني ذراع زوجها. غراي وحده بقي جاداً، كما لاحظت لوسيا. وبدت عليه العزلة والإستغراق في أفكاره الخاصة.

* * *

عند عودتهم إلى المنزل، قالت روز ماري: «برادي في الخارج. هل لك أن تصنعي لنا الشاي يا جيني؟ سأتصل بالدكتور جورج لأسأل أن كان بإمكان غراي.. أن يأخذ لوسيا إليه».

بعد انقضاء ساعة، كانت لوسيا تجلس على كرسي في عيادة الطبيب وقد ثنت كمها إلى أعلى، تنتظره أن يحقنها وكأنها طفلة تحتاج إلى رعاية. تبعها غراي إلى غرفة الكشف ليتحدث مع الطبيب.

ـ ها قد أخذت الحقنة.

ضغط الطبيب مكان الإبرة بقطعة قطن وطلب منها أن تمسك بها وبعد لحظات وضع مكانها شريطاً لاصقاً وهو يقول:

ـ أنت شاحبة للغاية أيتها الشابة وكأنك لم تنالي كفايتك من الهواء النقي. التمرينات الرياضية جيدة لك، ولكن السير خمسة أميال في البراري أفضل. تشبهي بغراي. إنه يعمل في المكتب طوال الأسبوع، لكنه يمضي العطلة الأسبوعية في الريف. أليس كذلك يا غراي؟

ـ قدر استطاعتي. بشرة لوسيا الشاحبة هي «موضة» فالطب لا يوافق على التعرض لأشعة الشمس لاكتساب اللون الأسمر.

ـ مثل كل شيء آخر، المسألة تتعلق بالتعقل. حرق الجلد تحت أشعة الشمس أمر سيء، والنساء اللواتي يكثرن من التعرض لحمامات الشمس سيندمن على ذلك دون شك حين يبدأن بعد الثلاثين بعدّ تجاعيدهن. ولكنني أعتقد أن الحركة في الجو المشمس مفيدة.

www.liilas.com
المعروضة من العائلة

وعندما التفت الطبيب ليلقي بمخلفات الحقنة في صندوق القمامة، سألت لوسيا غراي: «ماذا بخصوص أجرة الطبيب؟».

رفض غراي الجواب بهزة من رأسه، وبعد أن رافقها الطبيب إلى السيارة ولوح لهما بيده مودعاً، قال: «يمكنك أن تعودي إلى المستوصف وتدفعي غداً عندما يأتي الموظفون».

ـ هل تعرفه طوال حياتك؟

ـ نعم. لقد جاء إلى هنا في ذات الوقت الذي جاء فيه أبواي. وعندما اشترى أبي المنزل كان شبه مهمل. وبسبب نقص الأيدي العاملة كانت البيوت الكبيرة رخيصة الثمن. حينها فكر أن جهازاً للتدفئة المركزية وغيره من الأجهزة المنزلية سيوفر بديلاً عن الأيدي العاملة.

لاحظت لوسيا أن غراي كان يستخدم على الدوام لفظ أمي.. أبي.. كما تفعل جيني. ومع أن علاقته بأمه حميمة، فربما تعوّد أن يتحدث إليها بطريقة رسمية كي يبقيها بعيدة عنه بعض الشيء.

ومع ذلك، فنظراته عندما كان يمتص جرح يدها الصغير، كانت أبعد ما تكون عن الانعزالية، بل كانت دافئة جائعة وكأنه أمضى أشهراً لم يقترب فيها من امرأة.

• • •

٥ ـ هاجس غراي

لم يتبادلا الحديث في رحلتهما القصيرة من المستوصف إلى البيت. كان شعورها بجسده الطويل إلى جانبها طاغياً أما بدء السمراء فيمكنها الوصول إليها بسهولة لكن هذا لم يحصل طبعاً وإن لم تستطع منع نفسها من تصور كيف سيكون شعورها لو حصل ذلك.

لم يستطع رجل آخر قط، بمن فيهم أولئك الذين كانت تخرج معهم، أن يجعلها تشعر مثل هذا الرجل. ولأن لا شيء مشترك بينهما إضافة إلى أسباب أخرى تدفعهما إلى كراهية بعضهما البعض، فهذا التجاذب بينهما غير معقول على الإطلاق. وقالت تجري معه حديثاً مهذباً: «أين ولدت؟».

ـ في مستشفى في لندن. كنت فرصتهما الأخيرة في إنجاب طفل ذكر... رغم أن أياً من شقيقاتي كان بإمكانهنّ الإستمرار في العمل حتى لو لم أولد.

ـ هل أنت جاد؟

ـ تماماً، لو أن جيني لم تتزوج توم، لانتهت رئيسة تحرير إحدى الصحف الوطنية أو كبرى الصحف الأقليمية. إنهن جميعاً بارعات في التخطيط وفي التفاوض. وهذه هي الأمور الرئيسية التي تتطلبها الإدارة.

ـ ذكرت هذا الصباح أن اللوم يقع على النساء لانهيار الأسرة. ماذا كنت تعني؟

www.liilas.com
المحروسة من البيان

- بنات أخواتي سيقلن لك (لا تسألي). إنهن، في الوقت الحاضر لا يوافقن على آرائي الرجعية، ولكن قد يغيّرن رأيهن عندما يتعدّين سن الثلاثين فيجدن أنفسهن من دون رجال أو متزوجات من مهنهن.

فسألته وهي تتذكر ما قالته أمه عن أبيه: «ألا توافق على المرأة العاملة؟».

- بالعكس. العالم الغربي سينهار إذا فقدها.

كانا قد وصلا إلى مدخل «الاركوود» فأوقف السيارة، وانتظر إلى أن مرت سيارة عابرة فدخل من البوابة وهو يتابع: «لكن العلاقات الثابتة هي الأساس الوطيد لكل حضارة ناجحة. وبدونها تعمّ الفوضى... فالأبناء الذين يكوّنون آراءهم من التلفزيون بدلاً من الوالدين... المراهقون الذين يحصلون على مصروف جيب سخي بدلاً من اهتمام ورعاية الآباء... يجلبون الانهيار المشؤوم للمجتمع».

- وكل ذلك بسبب المرأة؟ الآباء مسؤولون هم أيضاً.

مرّ بمحاذاة المنزل ثم أوقف السيارة إلى جانب سيارة صهره، قائلاً: «هذا مؤكد. لكن النساء هن اللواتي دمّرن الحافز للزواج عند الرجال، لقد بقي الرجال يتزوجون طوال أجيال لأن تلك كانت هي الطريقة الوحيدة أمامهم للحصول على الجنس بشكل منتظم. إلى أن بدأت النساء يمنحن الجنس بحرية، فما الذي توقعن حدوثه؟ ربما اعتقدن أنهن بذلك سيحصلن على المتعة ولا تهم النتائج».

إذا كان السجن قد علّم لوسيا شيئاً، فهو أن تغلق فمها وتتجنب المشاكل. حين لا ترغب في الجدال أو تجنب الأسئلة فإنها تفضّل الابتعاد عن كل شيء.

فقالت بلطف: «يمكنني أن أفهم أن يكون هذا رأي أبيك أو جدك. ولكن ما يدهشني أن يكون هذا هو رأيك أيضاً».

- لا تسيئي فهمي. أقصد أن البيت هو مكان المرأة. إذا كان لديها عقل

ذكي تريد أن تستعمله... فهذا من حقها وهو جيد. لكن اتضح منذ سنوات أن الحصول على كل شيء هو أمر مستحيل. إذا أراد الرجل زواجاً جيداً، فهو يعلم أنه لا يمكن أن يعبث كما اعتاد وهو عازب. وإذا أرادت المرأة أولاداً، عليها أن تتقبل فكرة أن مكان الأم هو إلى جانب أولادها الذين هم بحاجة إليها أقله في السنوات العشر الاولى من أعمارهم. هذا هو أحد خيارات الحياة».

وفتح باب السيارة ونزل منها. فلازمت لوسيا مكانها، وهي تدرك أن تربيته المهذبة سترغمه على الالتفاف حول السيارة وفتح الباب لها. لم تكن وجهة نظره هي التي أغاظتها بل طريقته في التعبير عنها وكأن ما يقوله شيء مقدس. عندما فتح لها باب السيارة وخرجت منها، قالت: «ألا تتجاهل حقيقة أنه، حتى في هذه الأيام، يأتي الكثير من الأولاد مصادفة وليس اختياراً، وأن الكثير من الأسر تجد صعوبة في العيش على دخل لفرد واحد».

أراح غراي ذراعه على حافة الباب، ورد قائلاً: «لا، ما دام الأهل لا يتعلقون بالمظاهر والكماليات. لدي خادمة كبيرة في السن لا أراها كثيراً إذ تأتي بعد خروجي. وذات يوم مرضت ولازمت البيت فأصرت على أن تطهو لي قدر حساء كبير، لقد ربّت خمسة أولاد بمدخول زوجها الذي يعمل موزعاً للحليب. كانت ابنتها تخرج للعمل كي تتمكن من دفع أجرة دروس تصميم الأزياء.

الإصرار على ملء الثلاجة بالطعام المناسب والذهاب في إجازات خارج البلاد بما يتخللها من تأخير في المطارات، هذا كله يأتي حباً في التظاهر أمام الجيران، أكثر من كونه يتعلق بالمتعة. وكما تقول خادمتي السيدة بوتين: (هذا شيء غير معقول، يا سيد كلدر وود) والحق معها».

شعرت لوسيا فجأة بالإرهاق. وجودها منفردة مع غراي يسبب لها توتراً لم تكن مستعدة لتحمله بعد، فقالت: «المبالغة في الاشياء ليست

www.liilas.com

معقولة بالطبع. أظن الأمور كانت دوماً على هذه الشاكلة وستبقى كذلك. أشكرك على مبادرتك بأخذي إلى الطبيب».

دخلت المنزل بسرعة وهرعت صاعدة السلالم، وهي تنوي البقاء في غرفتها إلى أن يخرج الزائرون.

بعد ذلك بساعة، سمعت أصواتاً أمام المنزل ثم سيارات تبتعد، ونزلت إلى الطابق الأسفل فوجدت السيدة كلدر وود في غرفة الاستقبال تطرز.

قالت وهي تشير إلى ملابس صوفية مطرزة، وضعت في سلة مسطحة بجانب المرآة: «ما أجمل هذه الألوان».

التصميم مستوحى من صورة كان غراي قد التقطها خلال أسفاره.

- لقد نسي الناس، أو لعلهم لا يدركون أن كل أشغال الإبرة التي صنعتها النساء في القرون الماضية كانت ألوانها زاهية حين صنعها. لا أدري إن كانت نساء جيلك سيصنعن هذه الأشياء عندما يكبرن في السن، أما أن تمضيتهن للوقت ستكون مختلفة جداً بعد أربعين عاماً؟

فقالت لوسيا بغموض: «من يدري؟».

إنها لا تزال تشعر بإنهاك غريب بعد الساعات التي أمضتها بصحبة غراي. لقد حرك فيها مشاعر لم تكن تريد الإحساس بها. كانت أشبه بمن خرج لتوّه من المستشفى وهو بحاجة لنقاهة.

قالت روز ماري: «أخبرني غراي أن لديك أمتعة مخزونة في المستودع. يمكننا استعادتها يوم الأربعاء عندما نذهب إلى لندن لحضور المعرض المعماري الذي يحرص توم على أن نحضره. كم هو لطيف. أنا محظوظة باصهاري».

غيرت لون الخيط الذي تطرزه وهي تتابع: «لكنني أعتقد أن العلاقة مع الأصهار عادة أسهل منها مع الكنّات وهذا لا يعني أن ثمة كنة في الأفق. جبل غراي حذر جداً من الالتزام بالزواج. لقد رأوا الكثير من

أصدقائهم يندمون على زواجهم».

لم تشأ لوسيا أن تتحدث عن غراي، فقالت: «وما هو ذلك المعرض؟».

- إنه في «الأكاديمية الملكية»... وهو عرض لرسوم وضعها رسامون من القرن الثامن عشر. أنا واثقة من أننا سنستمتع جداً. بعدها يريدوننا أن نتناول العشاء معهم، وهكذا سنمضي الليلة في منزل غراي، لديه بيت فسيح.

أخفت لوسيا ذعرها لاضطرارها إلى فرض نفسها على ضيافة غراي من دون رغبة منه. فقالت: «هذا لطف بالغ منك ومن جيني وزوجها... لأنكم شملتموني بهذه الدعوة. لكنني لا اظن من اللائق أن أقحم نفسي في حياة اسرتكم أكثر من اللازم ربما. إذا كنت تنوين الذهاب بالسيارة سأرافقك إلى لندن، ثم أستقل القطار فأحضر أمتعتي ثم أعود إلى هنا بالباص أو بالقطار».

- يا عزيزتي، هذا سيقتضي منك وقتاً طويلاً فليس لقريتنا مواصلات جيدة، كما أنني أرغب لاحقاً في مناقشة لوحات المعرض معك. وقبل أن نعود إلى البيت، سنذهب لزيارة معارض أخرى ونستلهم منها بعض الأفكار المفيدة لأول رحلة رسم نقوم بها.

قالت روز ماري ذلك بحزم وعندما حاولت لوسيا الاعتذار، ازدادت حزماً. وتذكرت لوسيا ما قالته المرأة لابنها (من الآن فصاعداً سأفعل ما أظنه الأفضل).

يبدو أن عليها الموافقة على رغبات روز ماري مرغمة إلا إذا اعترض غراي فهو قد يرفض بعناد أن يعطي غرفة في منزله لنزيلة سجون سابقة خاصة وأن جريمتها قد سببت له ضرراً بالغاً.

* * *

العودة إلى لندن مع روز ماري في الليموزين، كانت ممتعة وقد

www.liilas.com

استمرت كذلك إلى أن قلبت روز ماري صفحة الجريدة التي تقرأها، ثم هتفت بدهشة: «لم يخبرني غراي أنهم أجروا مقابلة معه، كنت أعرف طبعاً عن الموضوع، وأظنه سيجذب الكثير من الاهتمام».

وعرضت الصفحة على لوسيا كي تتمكن من قراءة العنوان الرئيسي. (كلدر وود يكشف الغطاء عن خطط لإنشاء مبانٍ للمكاتب بمبلغ بليون جنيهاً).

وتحت العنوان صورة لبنايتين عصريتين بالغتي الضخامة، يقف بينهما غراي وهو ينظر بشيء من الانزعاج نحو المصور الذي كان كما يبدو جاثياً تحته.

قالت الأم: «سأعطيك إياها حالما أنتهي من قراءتها».

كان المبلغ شيئاً لا يتصوره العقل بنظر لوسيا، وقد زاد من شعورها بالتوتر للمحنة التي تنتظرها. كان منزل «لاركوود» مترفاً لكنه أيضاً ذو جوّ عائلي دافيء. فكيف يبدو منزله يا ترى؟ لا بد أنه أكثر رفاهية وترفاً ولكنه لا يحتوي على الجوّ البيتي.

ربما يبلغ ثمنه مليون جنيه، ولا شك أنه مجهز بأحدث الأجهزة الالكترونية المعروفة كما لا بد أن أثاثه من اختيار وصنع أكبر مصممي الأثاث. لكن مهما كان شكله، فهي تعلم أنها ستشعر بالتطفل حين تراه وسيكون ذهنها في حالة من التشوش تجعل غراي يحاول إثارته بكل سرور. مضت عدة دقائق قبل أن تفصل روز ماري أربع صفحات من الجريدة وتناولها للوسيا.

هذا الأسبوع، ستكشف «كلدر وود»، شركة العقارات الغطاء عن اثنين من أضخم المشاريع التي سيشهدها حي لندن التجاري. غراي كلدر وود، الرئيس التنفيذي للشركة وحفيد مؤسسها، يطلب رخصة لإنشاء بناءين يحتويان مكاتب زجاجية بكلفة مقدارها بليون جنيه.

وقد وصفت المشروع الصحيفة بالتفصيل ليخلص الكاتب إلى القول

بأن ذلك سيحدث صدمة كبيرة لاصحاب الأملاك الخاصة ومن المتوقع أن يبيع كلدر وود البناءين عند الانتهاء من تشييدهما، كما يمكن أن يتم بيعهما إلى مجموعة من المشترين المنفردين لتحويلهما إلى مراكز رئيسية.

- ما رأيك فيهما... حسب تصوراتك؟

سألتها روز ماري عندما طوت لوسيا الصحيفة ووضعتها على المقعد بينهما.

- تعجبني هذه اكثر.

قالت لوسيا هذا وهي تشير إلى بناء كان اكثر إرضاء للنظر من الآخر نسبياً ولكن في قرارة نفسها تظن أن كليهما قبيحا المنظر، ربما من المستحيل جعل بناء يحتوي على خمسة آلاف مكتب، يبدو جميلاً بعين الفنان.

لم تعلق روز ماري على ذلك. ربما كانت تفكر في الشيء ذاته، لكن ولاءها لابنها جعلها تسكت عن الافصاح، قالت: «سينزلنا السائق جاكسن في حي «ناينسبريدج» أنوي القيام ببعض التسوق ثم نأخذك لإحضار أمتعتك ونعود بك إلى بيت غراي. هو هناك، إنه يعمل في البيت هذا النهار».

- وبأي وقت تتوقعين الحضور هناك؟ سألتها لوسيا.

لقد كان ذهابها إلى بيته قبل وصول امه هو آخر ما تريد.

- لست واثقة بعد، لديّ قائمة طويلة بما يتوجب عليّ عمله. آه تذكرت... ستكونين بحاجة إلى بعض المال. لم نتحدث بعد عن راتبك، ولكن هذه دفعة على الحساب.

وفتحت حقيبتها فأخرجت منها ظرفاً وضعته على حجر لوسيا: «ربما تجدين بين أمتعتك ثوباً مناسباً تريدينه الليلة على العشاء أو ربما ترغبين بشراء ثوب جديد، أتحبين شراء الثياب؟ عندما كانت بنائي في مثل عمرك، كان هذا همهن الوحيد».

www.liilas.com

ـ قبل أن يمرض أبي، كنت أنفق معظم راتبي على شراء معدات الرسم وكتب الفن وكنت أملك بعض الملابس الجيدة للعمل. أما بقية الوقت، فأقضيه وأنا ألبس بنطلون جينز وقميصاً مقفلاً. هل ارتداء بلوزة حريرية وتنورة سوداء مناسب لهذه الليلة؟

ـ مناسب تماماً.

* * *

في تلك اللحظة، كان غراي يقف في غرفته وهو يحلق ذقنه.

كان من عادته أن يستيقظ باكراً، فيصل إلى مكتبه قبل ساعتين من مباشرة موظفيه أعمالهم. لكنه ليلة البارحة بقي يعمل حتى ساعات الفجر الأولى مما جعل تأخره في النوم طبيعياً، لأنه بحاجة إلى ست ساعات ينام فيها ليستعيد طاقته. المرآة التي فوق المغسلة عكست صورة جسمه الاسمر الذي كان يعرّضه دوماً لأشعة الشمس أثناء «هربه» القصير الذي يتبع في العادة معظم أسفاره العملية وهذا ما جعله يحافظ باستمرار على لونه المشرق.

حركة ذراعه اليمنى وهو يمرّر موسى الحلاقة، أظهرت حجم عضلات ذراعه القوية والتي يمكنها تحمّل الأعمال الشاقة كما أن عضلات صدره كانت تنبىء عن رجل يتماثل عمله الجسدي مع جهده العقلي. أما خصره ومعدته فما زالا كما كانا منذ عشر سنوات ليس لأنه زاهد في حياته ولا يطلق لنفسه العنان في تناول الوجبات الطيبة الغالية في مطاعم لندن الفخمة، بل لأنه عندما يحضر مثل هذه المناسبات، كان يدقق في اختيار طعامه.

* * *

كان مستوراً عن المرآة بالمنضدة لكنه لم يكن يدرس تفاصيل جسمه. كان يفكر باستياء بالغ، بوصول (تلك الفتاة المجرمة) كما يسمي لوسيا ذهنياً.

كان يحب أن تستعمل أمه بيته باعتباره مركزها اللندني، فيحرص على أن يأخذها إلى أمكنة لا تذهب إليها عادة النساء في مثل سنها، كالمطاعم اليابانية الشعبية، حيث يجلس جميع الرواد على مصاطب خشبية مستطيلة امام موائد مستطيلة فيتحدث اكثرهم إلى جيرانه وكان غراي يذهب بمفرده إلى هناك أحياناً. وقد ألف التردد عليه ما أبقاه على صلة بذلك العالم المزدحم الذي يغص به المكان.

انتهى من الحلاقة فانحنى ليغسل وجهه بالماء البارد ثم وقف تحت الدوش، وغسل رأسه كما يفعل كل صباح وهو يحاول أن يطرد من ذهنه، ذلك الضيق الذي يشعر به لاضطراره أن يستضيف تلك الفتاة.

كان موقفاً صعباً. أمه متمسكة بصداقتها، وهو بالقدر نفسه على التخلص منها. ولكن كيف؟

حتى جيني، التي كان يأمل مناصرتها، قد انسجمت مع الفتاة. ويبدو أن جيني وجدت الموقف مسلياً وليس مزعجاً.

ولكن كل اخواته يتمتعن بروح الفكاهة هذه.

أسلوب التفكير الأنثوي الذي عرفه من خلالهن، كان ينبغي أن يبعده عن النساء طوال حياته لكن ذلك لم يردعه من الزعم بانهن الجنس الأضعف من الرجال بعشرة أضعاف. ولولا وظيفتهن التناسلية، وما يبدو عليهن من ضعف لاضمحل العالم منذ الأزل.

وقف تحت الماء مغمضاً عينيه، إنه أول حمام ساخن له هذا النهار، ومن عادته أن يأخذه مرة أخرى بعد عودته من العمل مساء... كان الاستحمام متعة يحب إطالتها بنفس الطريقة التي يستمتع فيها بفطور لذيذ.

لكن ما أفسد متعته هذا الصباح، ذكرى تلك الفتاة ممددة داخل حوض الحمام في بيتهم في لاركوود.

إزداد غضباً ولعناً وهو يغير ماء الدوش من الساخن إلى البارد عسى أن يطفىء أفكاره المرفوضة، لكن ذلك لم يحصل.

ثم هبط عليه الإلهام . . وجد طريقة ليتخلص منها حتماً، كل ما عليه فعله هو أن يتحرش بها بوقاحة، وبهذا تنفرّ من البقاء معه.

وقد بدا واضحاً حينما كان يحاول إخراج الشظية من إصبعها يوم الأحد، أنها استاءت من لمسته لها وستستاء أكثر إذا هو بادر إلى التحرش بها الليلة، وذلك بعد أن تذهب أمه إلى سريرها.

أقفل الدوش، ثم تناول روب الحمام من فوق المشجب.

أثناء عودته من لاركوود في آخر الاسبوع، تصرف بحماقة عندما امتص الدم من جرح امرأة لا يعرف عنها شيئاً وقد يكون دمها مصاباً بعدوى! كيف يعلم كم من الرجال عاشرت، ومع من كانوا هم أيضاً؟

سبق له أن قام بمثل هذه المجازفة من قبل، لكن الظروف كانت مختلفة، كان يسير في طريق خالية عندما استوقفه حادث اصطدام كان قد حصل قبل حضوره بدقائق وكان ركاب السيارتين في حالة الخطر. طلب العون بواسطة هاتفه الخلوي ثم قام بما استطاع عمله إلى أن حضرت سيارة الإسعاف.

لقد قام، حينها بعملية انعاش لبعضهم بواسطة الفم وتلوثت يداه بالدم ولم يتردد قبل قيامه بذلك سوى ثانيتين فقط، رغم معرفته بالخطر الكامن. لكن انسانيته انتصرت، وتملكه الرضا عن نفسه فيما بعد حين علم أن إسعافه الأولي أنقذ من الموت أشد الإصابات خطراً.

ومن يومها وهو يحمل في سيارته قفازات مطاطية طبية وأداة صغيرة مبتكرة للإنعاش دون الاضطرار لملامسة جسدية وهذا احتياط واجب هذه الأيام. لكن الاحتياط لم يخطر بباله يوم الأحد. كانت خارجة من السجن حديثاً ولديه الكثير من الأسباب التي تجعله يكرهها. لقد أمضى حياته يتدرب على سلوك كانت أمه وأخواته يعتبرنه سلوك الرجل الحقيقي، فقد ترسخ هذا داخل نفسه متغلباً على الحذر والسخرية المتهكمة.

* * *

ـ لماذا جئنا إلى هنا؟

سألت لوسيا السائق جاكسن حين فتح لها باب السيارة لتخرج منها وذلك قبل الساعة الواحدة بقليل.

كانت الليموزين متوقفة على بعد باردات قليلة من نهر التايمز قرب حوض صغير للسفن. . فقال السائق: «هذا بيت السيد غراي يا آنسة، قرب المركب هناك».

وأشار إلى مركب للنقل مؤلف من طابقين عند نهاية طريق للمشاة، يسهل مرور مختلف أنواع المراكب المحتشدة على الجانبين.

سألته بدهشة: «هناك؟ أتعني طوال الوقت وعلى مدار السنة؟».

ـ نعم يا آنسة. إذا شئت أن تسيري، فلن أتأخر في إحضار امتعتك».

* * *

www.liilas.com
المزيد من العنان

٦ ـ في عرين الأسد

سارت لوسيا متمهلة بالإتجاه الذي أشار إليه السائق، محاولة أن تألف حقيقة أن مكان سكن غراي كان مختلفاً عما كانت تتوقع. ما الذي يجعل رجلاً يرأس شركة تملك أسهماً في السوق ذات قيمة مذهلة يعيش في مكان كهذا؟

ذلك لا يعني أنه ليس مكاناً جميلاً للسكن... حسب مقياسها هي، فالنسيم القادم عبر الماء، وذلك النهر الفسيح الممتد في الإتجاهين، الاحساس بالإتساع والحرية وسط إحدى مدن العالم الكبرى، كل ذلك استهواها بقوة. لكنه لا يبدو بيئة ملائمة ليسكن فيها غراي ومجموعته الثمينة من اللوحات الفنية.

كانت تنتعل حذاءً مطاطياً منخفض الكعب بدد صدى خطواتها، ولكن ما إن اقتربت من «المركب» حتى ظهر غراي على السطح.

ـ صباح الخير. اصعدي.

قال ذلك دون أن يبتسم، لكن تصرفه لم يكن خالياً من الترحيب.

ـ صباح الخير. هل أمك هنا؟

ـ لم تأت بعد.

نظر خلفها حيث كان جاكسن يتبعها بالحقيبتين وأضاف قائلاً: «هل هذا كل ما لديك في العالم ام بعضه فقط؟».

ـ هذا كل شيء. لقد اقنعتني السيدة كلدر وود بأن أحضر الحقيبتين

قائلة إن لا معنى لترك الحقيبة الأخرى في المستودع لأن لديها مكاناً واسعاً للتخزين.

لم تذكر أمه باسمها الأول، خشية أن يعتبر ذلك وقاحة منها.

ـ لا معنى لأن تضعهما على المركب لليلة واحدة، يا جاكسن أعدهما إلى السيارة وخذهما إلى لاركوود. إنك بحاجة إلى تناول الطعام قبل عودتك، تناول وجبة النهار في مطعم «كراون أند انكور» فهو ممتاز في العادة، أخبرهم بأن يرفعوا إلي قائمة الحساب.

ـ شكراً يا سيدي.

وعاد جاكسن من حيث أتى. فقال لها غراي: «وجود مطعم جيد قريب من هنا هو شيء جيد، أظن أنك تفضلين غسل يديك قبل الغداء، سأريك مكانك».

وعلى الرغم من أن المركب بدا واسعاً من الداخل. إلا أن لوسيا لم تتوقع أن تجد غرفة الجلوس بهذا الإتساع، وقد أدهشها للغاية وجود مدفأة كبيرة. وفي الركن البعيد من غرفة الجلوس، مطبخ كامل مع مائدة مستطيلة للإفطار.

وجدت نفسها تنظر إلى كتفيه العريضتين وظهره العريض الذي سبق أن لفت نظرها أثناء نزهتهم يوم الأحد.

وقطبت جبينها: «منذ متى وأنت تعيش هنا؟».

ـ منذ تطوير حوض بناء السفن أي منذ أربع سنوات بالضبط.

لم تكن قد انتبهت جيداً إلى المباني الممتدة على ضفاف النهر، لا بد أنها من إنشاء كلدر وود أيضاً.

قالت: «قرأنا عن آخر مشاريعك عندما كنا في الطريق إلى هنا».

لم يقل غراي شيئاً. كان يصعد السلم المعدني المؤدي إلى السطح، وتبعته لوسيا وهي تتذكر ذلك السلم الأكثر طولاً وعرضاً الممتد بين منبسطات ضيقة تحدّها صفوف من الزنزانات.

وانتابتها قشعريرة... أتراها ستبقى دوماً مسكونة بذكرى تلك الأشهر التي أمضتها في السجن؟

فتح غراي باباً يؤدي إلى غرفة تحتوي على سريرين مزدوجين فوق بعضهما البعض، وهذا المشهد أعادها إلى ذكرى اشتراكها في غرفة واحدة مع امرأة كان يبدو عليها خلال الثلاثة أيام الأولى من وجودهما معاً، وكأنها تريد قتل لوسيا.

ـ هنا أسكن أحياناً أبناء وبنات شقيقاتي حين يرغب آباؤهم في الحصول على راحة قصيرة.

قالها غراي بشيء من السخرية إلى أنه لا يمانع أحياناً في إراحة شقيقاته من أولادهن، لكنه لا يريد تحمل هذه المسؤولية العائلية. وأضاف مشيراً إلى باب هناك: «هناك دوش وراء هذا الباب. أظن أنك ستجدين كل ما تحتاجينه. وعندما تصبحين جاهزة إصعدي إلى غرفة الجلوس حيث تتناولين شراباً».

ـ هذا يبدو مريحاً للغاية، شكراً.

ـ بكل سرور.

النظرة التي رمقها بها قبل أن يغلق الباب خلفه لم تكن متلائمة مع جوابه المهذب على شكرها له.

بقيت جامدة للحظات بعد خروجه وهي تحدق في الباب المغلق محاولة تحليل ذلك اللمعان الغريب في عينيه الرماديتين الغامضتين كالمعتاد.

لكن استنتاجها هذا لم يكن معقولاً نسبة إلى العداء الذي يسود علاقتهما. لا بد أنها مخطئة فربما نتج ذلك عن انعكاس الأنوار من النهر المواجه من خلال النافذة وهي تضرب برقة هيكل المركب.

ومع ذلك، فهي متأكدة وإن للحظة عابرة من أن غراي كان ينظر إليها بشهوانية.

أثناء عودتها إلى السطح الأعلى، لفتت انتباهها لوحة فنية يبدو فيها منظر لبحيرة مستطيلة من ناحية وصفٌ قناطر من ناحية أخرى فيما أشعة الشمس تغمر الكائنات. لم يكن هناك ما يدل على المكان الذي رسمت فيه الصورة، أو شخصية الرسام. ونكهنت بأنه ربما مكان ما في جنوب أوروبا.

كان غراي ينظر إلى النهر عندما دخلت.

سألته: «هل اللوحة التي على جدار السلم هي تذكار من رحلة؟».

لم يبد عليه أنه تذكر لحظتها ما هو معلق على جدار السلم ثم سارع إلى القول.

ـ هل ميزتها؟ هل سبق لك الذهاب إلى هناك؟

فهزت رأسها: «أين تعني؟».

فناولها كأسها: «إنها أحد أفنية قصر الحمراء في غرناطة، آخر معاقل ملوك غرناطة المسلمين قبل إخراجهم منها أواخر القرن الخامس عشر، لقد أمضيت قسماً من سنة الفراغ بين المدرسة والجامعة، في التعرف على اسبانيا وتعلم لغتها. هل كان لديك سنة فراغ؟».

ـ لا. لقد ذهبت مباشرة من المدرسة إلى كلية الفنون.

ندمت على قولها هذا، وتمنت لو أنها أجابت بلا وحسب، ذلك لأن ذكرها لدراسة الفنون لا بد أن يعيده إلى اشياء تريد نسيانها وهذا لا يعني احتمال أن ينسى هو كذلك. لكنه، على الأقل، يبدو راغباً في وضعها جانباً، في الوقت الحالي.

رفع كأسه قائلاً وهو يشير إليها بالجلوس: «إذا كان بالإمكان، أعتقد أن سنة فراغ قبل الذهاب إلى الجامعة هي فترة ثمينة. إنها غالباً، ما تغير رأي الطالب حول كيفية قضاء حياته.. وتفتح ذهنه على أن للحضارات الأخرى طرقاً مختلفة وسليمة هي أيضاً برؤية الأمور».

ـ هل أعجبتك الحضارة الاسبانية؟ وهل تختلف كثيراً عن حضارتنا؟

ـ نعم بالنسبة للسؤالين. ولكن ربما تغيرت كثيراً بعد انقضاء ثمانية عشر عاماً منذ زيارتي لها فانا لم أعد إلى هناك قط. وهي لأسباب مختلفة ليست من البلاد التي تساهم شركتنا في تطويرها، ولكن لأن أسبانيا كانت امبراطورية واسعة الأرجاء ذات يوم، فإن لغتها مفيدة في أقسام أخرى من العالم.

كانت لوسيا على وشك الجلوس على إحدى الكراسي لولا أنه امسك بمرفقها قائلاً: «لا، إجلسي على الأريكة حيث يمكنك أن تري النهر».

لم يكن ثمة سبيل للرفض رغم أن غريزتها حدثتها بأن اقتراحه لم يكن بريئاً كلياً فبقاء مكان شاغر من الأريكة بعد جلوسها عليها يمكّن غراي من الجلوس إلى جانبها. هذه ليست فكرة جيدة، ولكنها تنفست الصعداء عندما لم يفعل، فقد سار باتجاه خزانة ليفتحها، وبعد لحظة عاد إلى المنضدة المستطيلة أمام الأريكة حاملاً بيساء صحناً صغيراً من الفخار وكيساً صغيراً مغلفاً. وضع الكأس والصحن على المنضدة ثم فتح الكيس وأفرغ في الصحن ما فيه من مكسرات.

شكل يده جعلها تتلهف إلى قلم ودفتر للرسم، كانت دوماً تعجب ببنية الرجل اكثر من مستديرات المرأة. أثناء دراستها لم يكن تصوير الأحياء في الصف من ضمن منهج الدراسة، لكنها استغلت كل فرصة كي ترسم الناس وتملأ دفتر التخطيط بدراسة الأيدي، من أيدي الأطفال إلى أيدي الشيوخ ذات المفاصل الملتوية.

كانت هاتان اليدان قويتين رائعتين. أخذت تراقبهما الآن وهو يفرغ محتويات الكيس ثم يلقي به في سلة المهملات، قبل أن يقدم لها الصحن فقالت وهي تتناول حبة منه.

ـ شكراً.

ثم جلس بجانبها على الأريكة جاعلاً أي أمل لها في الراحة والتمتع

بمشهد النهر، وبطعم الكاجو المملح يتبدد على الفور. لم يجلس على الطرف الآخر من الأريكة التي تتسع لثلاثة أشخاص بل في جزئها الأوسط، جاعلاً جسمه يميل إليها واضعاً مرفقه على المسند الخلفي.

سبق لها ملاحظة أنه، وبعكس معظم رجال الأعمال الكبار الذين كانت تراهم على شاشة التلفزيون أو في الحياة الحقيقية، لم يكن يضع في إصبعه الصغير خاتماً لختم الأحرف الأولى من اسمه ولا كانت ساعته من تلك التي تدل على ثراء أصحابها، حتى ملابسه العادية لم تكن تشير إلى ثرائه. قميصه لم يكن فيه ما يدل على أنه من مصمم شهير وبنطلونه يمكن أن يشتريه الشخص من أي سوق أو شارع. كان واضحاً أنه لم يكن بحاجة إلى أي شيء يقوّي ثقته بذاته، لقد أعجبها ذلك ما دام لا يؤدي إلى الغطرسة.

سألته: «ما ذلك الجسر البعيد؟».

ـ إنه «جسر وندسوبرت». من فوائد هذه المنطقة أنها قريبة من مطار طائرات الهليكوبتر «باتيرسيا» كان أي يسافر إلى أي مكان بالسيارة والقطار لكن الطرق لم تكن معقدة متشابكة في زمنه. الهليكبتر هي الطريقة الوحيدة للخروج من المدينة بسرعة. أنا أحب قيادة السيارة وعادة ما اذهب بواسطتها إلى لاركوود، لكنني أطير غالباً.

ـ أتعني أنك تقود الطائرة بنفسك أم أن لديك طياراً؟

ـ بل أقودها بنفسي. ذلك ليس صعباً. ليس أصعب من قيادة السيارة، هل تحسنين قيادة السيارات؟

ـ علمني أبي عندما كنت في سن المراهقة ونجحت في الإختبار، لكنني لم استعمل إجازة القيادة قط. عندما لم تعد سيارته القديمة تصلح للقيادة، كان استعمال المواصلات العامة أفضل اقتصاديا من شراء سيارة جديدة. في آخر وظيفة لي، كنت أذهب إلى العمل باكراً وأعود متأخرة لكي اتجنب ساعات الزحام.

www.liilas.com

- هذا تدبير عاقل، نظراً لما آلت إليه أمور المواصلات. أصبحت أرى الناس يفضلون العمل في البيت أو يعودون للسكن في المدن. أن يسافر ملايين الناس يومياً، ذهاباً وإياباً، لكسب العيش هو إضاعة ضخمة للحياة. إذا أنا...

وسكت فجأة لينظر إلى مركب للشرطة يتحرك في النهر وعندما توارى عن النظر، لم يكمل حديثه وإنما تحول للحديث عن موضوع حركة الملاحة في النهر، وتملك لوسيا شعور بأن ظهور المركب كان ذريعة جاءت في الوقت المناسب كي يقطع حبل أفكار لا يريد أن يشركها به.

قالت وقد نسيت للحظة طبيعة وضعها المثير للإشياء في هذه الأسرة: «إذا كان هذا رأيك، لماذا لا تبني شركتك بيوتاً في المدينة بدلاً من أبنية بالغة الضخامة لا تفعل سوى إضافة المزيد من الزحام؟!!».

رأت عضلات فكه تتوتر بسبب الغيظ، لكن صوته ظل هادئاً وهو يقول: «الحصول على الرخصة استغرق وقتاً طويلاً. بين الفكرة وتحقيقها مسألة سنوات وليس أشهراً. وربما سيكون هذا البناء آخر ما نبنيه من هذا النوع».

مال إلى الأمام ليحمل صحن الكاجو يقدمه إليها، وعندما وضعه وعاد إلى مكانه، كانت المسافة بينهما قد ضاقت وأصبحت ذراعه ممتدة على مسند الأريكة خلفها.

لو كان رجلاً آخر، لتأكدت لوسيا من أن حركته التالية هي أخذها بين ذراعيه. لكنها لم تستطع أن تحمل نفسها على الاعتقاد بأنها نية غراي، فهذا ليس معقولاً إذ أنه منذ اقل من عشرة أيام كانت كراهيته لها بلا حدود إلى درجة أنه قدم لها مبلغاً باهظاً من المال لإغرائها بالرحيل عنهم. لكان من الممكن أن تصدق أنه ربما غير رأيه.. لكنها لم تكن بالغة الجمال ولا مثيرة للغاية.

سبق وتحرّش بها عدد من الرجال في الماضي. ولكن أية فتاة مقبولة

الشكل ولائقة لا بد أن يمرّ عليها ذلك. كان معظمهم من الموظفين متوسطي السن أو الشباب الأغرار آملين منها التجاوب اكثر من أولئك الفتيات الرائعات اللواتي يرغبون بهن حقاً، ولكنهم يخشون التقدم إليهن. لكن غراي لا يعد واحداً من أي من هاتين الفئتين. إنه، بمظهره وأمواله الطائلة ومركزه المرموق يمكنه أن يحصل على ما يريد، فلماذا يزعج نفسه بها؟ إلا إذا.. وخطر لها أمر رغم أنه بعيد الاحتمال إلا أنه ليس مستحيلاً وإن يكن معيباً. فالتحرش طريقة رخيصة وأكثر تأثيراً من محاولته السابقة للتخلص منها.

وعندما همت بالتحرك من مكانها بجعل المسافة أكبر بينهما وبشكل غير واضح، ساورتها فكرة أفضل. تذكرت نصيحة أسرتها لها إحدى زميلاتها في كلية الفنون كانت تتعرض لملاحقة الشباب على الدوام، وهي شقراء مغرية اسمها كاتي.

قالت: «عندما يهمون بمضايقتي، فيما أنا لا أريد العبث، أضع في فمي أي طعام مما هو موجود إنهم لا يستطيعون تقبيلك وفمك محشو بالطعام».

فسألتها فتاة أخرى: «وماذا لو لم يكن هناك أي طعام؟».

- ضعي في حقيبتك دوماً لوحاً من الشيكولاته. ستعجبين كم قطعة منه ستبقى في فمك قبل أن تذوب، إذا شئت.

مالت لوسيا إلى الأمام وتناولت قبضة من الكاجو وضعت في فمها بعضاً منهاوهي تقول: «كم هي لذيذة، أليس كذلك؟».

كان لهذا فعل السحر. نهض واقفاً، وهو يقول: «يبدو أنك جائعة. لن ننتظر قدوم أمي للغداء فربما يؤخرها التسوّق. إنها تعشق شراء الهدايا لأحفادها».

- كم حفيداً هم؟

- ثمانية. «جيني» التي تعرفينها عندها ولدان وكذلك.. جولّيا..

www.liilas.com

أختي الكبرى. أما «لولي» وهي صغراهن، فلديها أربعة. هي وزوجها طبيبان. سأطلب من الطاهي إحضار بعض الطعام.

- أيمكنني المساعدة؟

- لا، شكراً، كل شيء حضر مسبقاً. إبقي مكانك واستمتعي بهذا... الكاجو.

هل كان في نظراته لمحة سخرية قبل أن يخرج؟ أتراه خمن سبب جوعها المفاجيء هذا؟

* * *

وقد خمن غراي السبب فعلاً، فقد درس لغة جسد الأنثى مدة طويلة. ورغم أن النساء لم يتعودن إظهار الإحساس بالخطر عندما يكون جالساً بالقرب منهن إلا أن لوسيا ظهر عليها التوتر قبل عدة دقائق من حشو فمها.

في الواقع، لم يكن ينوي القيام بتحركاته فيما يمكن لأمه أن تحضر في أية لحظة. كل ما كان يفعله هو لعبة القط والفأرة، مع شعوره بشيء من الرضى السادي وهو يرى ردة فعلها إزاء وضعها.

منع نفسه عن إخبارها أشياء لم يتحدث عنها إلى أي إنسان آخر. ما الذي جعله يعتبرها موضع ثقة؟ هذا ما لم يعرفه. إنها آخر شخص في العالم ينبغي أن يوليها ثقته فيحدثها باهتماماته الخاصة.

كذلك أثار غيظه تجرؤ لوسيا إبلاغه بما على شركته أن تفعل، ويبدو أنها لا تدرك طبيعة وضعها هنا كم هو مهدد وغير مستقر. إنها من الأشخاص الذين إذا أعطيتهم سنتمتراً يأخذون كيلومتراً.

لكن عقله لم يغفل عن حقيقة أن جزءاً من غيظه كان موجهاً إلى ذاته، ورغم أن غايته الليلة كانت التخلص منها، إلا أنه لم يشعر بنفور من عدم تنفيذ خطته بل بنوع من التوقع والحدس. رغم أن آخر ما كان يتمناه، طبعاً، هو استجابتها له. فمما نعتها به سيزيد من غضبها وهذا ما يفضله أكثر.

وبينما كان يقوم بالتجهيزات الأخيرة للوجبة التي أعدتها مديرة منزله السيدة بوتينغ منتقلاً في نواحي المطبخ، تذكر فجأة حادثة منذ سنتين عندما اتهمت فتاة تعمل في مكتب فرع شركته في برمنغهام، مدير قسمها بالتحرش الجنسي. فأقنعها هو بالعدول عن رأيها حيث قام بطرد الرجل الذي فعل ذلك. وعلى كل حال فالمدير المذكور لم يكن موظفاً جيداً لأسباب عديدة. ولأنه أقنع بأن الفتاة لم تحاول إثارة المدير، فقد تعاطف غراي معها وتفهم مبلغ انزعاجها من تحرش رجل متوسط السن بها يومياً.

لكن ضميره لم يؤنبه بخصوص التحرش بلوسيا. لقد حدثته غريزته بأنها سترفض. وانتهاؤهما معاً أمر غير وارد كما أنه ليس وارداً أن تصرخ مطالبة بمحام.

* * *

www.liilas.com
الحرية من الحنان

٧ ـ الامتحان الرهيب

عندما كانت لوسيا طالبة في كلية الفنون وبعد ذلك موظفة في شركة إعلانات كانت غالباً ما تمرّ من مدخل تعلوه قناطر ثلاث... في طريقها إلى معرض للصور أقامته الأكاديمية الملكية.

كانت الحياة، حينذاك، تبشرها بالكثير، حتى بعد أن أرغمتها ظروف العيش على أن تدرك قصورها وتخفف من طموحها. بقي لديها ذلك الحلم الذهبي في أن تقابل حبها الحقيقي الذي يجعل من حياتها مغامرة مثيرة.

لكن ذلك الحلم قد فقد إلى حد ما تألقه الآن ربما بسبب الخطأ الذي ارتكبته أو ربما بسبب خيرات أناس من معارفها إصطدمت أحلامهم بالسعادة في الحب بحقائق الحياة القاسية.

الليلة، وهي تجتاز الفناء مع روز ماري وابنها، تذكرت المناسبات الماضية حين كانت تأتي إلى هنا، هذه المرة كان حدسها يعادل خشيتها. وجدت صعوبة في التخلص من شعورها بما قد فعلته، والمكان الذي كانت فيه سيظل ملتصقاً بها بحيث لا مهرب لها منه.

كان الآخرون ينتظرونها قرب الدرجات المؤدية إلى المدخل وسرعان ما دخلوا جميعاً في الردهة المزدحمة التي كانت تحتوي على سلم واسع يصعد إلى المعرض.

شعرت لوسيا بعدم الارتياح للجلبة المتصاعدة في الردهة إلى حد الرغبة في الهرب من المكان، لكن ذلك كان مستحيلاً، فلم يكن أمامها

سوى أن تسيطر على أعصابها وتتماسك إلى أن يمر شعورها بالضيق.

كانت ميزة غراي في الأماكن المزدحمة أن طوله يسمح له بأن يرى ما خلف الناس الذين يحيطون به.

لكنه الليلة لم يكن يترقب أناساً يعرفهم ويريد أن يتحدث إليهم، فالمجاملات الإجتماعية لم تكن تهمه الآن... بل كانت آخر ما يراود ذهنه. فقد كان لديه هدف آخر.

نظر إلى الهدف الذي يملأ ذهنه واعترف لنفسه مرغماً بأنها تبدو ملفتة للنظر بشكل مدهش لم يتوقعه، وذلك ببلوزتها التبتية اللون والتنورة الضيقة الطويلة السوداء ومن دون أية زينة أو مجوهرات. استطاعت، بشكل ما، أن تطغى على الحاضرات من النساء رغم ملابسهن الثمينة الفاخرة والساعات التي أمضينها في صالونات تزيين الشعر.

نظر إلى لوسيا عن قرب، فلاحظ لمعان العرق على صدغيها. ورغم الازدحام، لم تكن الحرارة مرتفعة بشكل مزعج حتى بالنسبة للرجال المرتدين البدلات. فكيف بالنساء! وهكذا فلا بد أن العرق على صدغها كان بسبب من المفترض به أن يفرح لقلقها ولخوفها لا أن يتأثر، لكنه شعر بأن هذا لم يحدث.

وقال لها متمتماً بحيث لا يسمعه الآخرون: «أتشعرين بالمرض؟ أتريدين أن تخرجي من هنا؟».

* * *

استغربت لوسيا أن يكون غراي هو الوحيد من بين الأشخاص الأربعة الذين ترافقهم، الذي لاحظ ضيقها وقدم إليها المساعدة. رأت نفسها تفكر في السند الذي يمكن أن يقدمه الرجل للمرأة التي يهمه أمرها.

ثم أدركت أن اهتمامه لم يكن موجهاً إليها هي بالذات إنما إلى بقية المجموعة التي ستفسد متعتها إن هي، حسب ظنه، أغمي عليها أو تقيأت.

رسمت على شفتيها ابتسامة مشرقة، وقالت تطمئنه: «بل أشعر بأنني

في أحسن حال».

وعندما رأت تصلب ملامحه كادت تشكره لاهتمامه بها لو لم تختر أخته هذه اللحظة لتتحدث إليه.

عندما صعدوا السلم وقادهم توم للتجوال في أنحاء المعرض، تبدد شعورها بالذعر فتمكنت من توجيه اهتمامها لرؤية ما جاءت من أجله. ولكن أهمية المعرض لم تستطع أن تصرف ذهنها تماماً عن حيرتها بشأن غراي الذي يظهر من الدلائل أحياناً ما يشير إلى كره ونفور منها فإذا به يتحول فجأة إلى الإحساس معها عندما تشعر بالضيق كما يفعل الآن أكثر مما تبديه نحوها أمه أو شقيقتاه.

وكأنه لغز يصعب حله. فهل ستفهم سبب ثغيره؟ إنها تشعر أحياناً بأن أقرب الناس إليه لا يستطيع فهمه جيداً.

* * *

بعد ذلك بأسبوع، ذهب غراي بالسيارة إلى أسرته في لاركوود، ومنذ تلك الليلة في حفلة الأكاديمية وهو يزداد غيظاً لأنه لم ينفذ خطته في التخلص منها بلجوئه إلى التحرش بها ولكنه غير رأيه قبل أن يشرع في التنفيذ بعد احساسه بأن السهرة قد تحولت إلى محنة بالنسبة لها. وهكذا وجد في نفسه نفوراً غريباً من أن يكون سبباً في زيادة مشاكلها. لكنه، في الوقت نفسه، قرر أن يصل إلى غايته بطريق مستقيم.

* * *

عندما وصل غراي، كانت لوسيا وحدها في البيت فقد خرجت المرأتان روزي وبرادي لزيارة خادمة سابقة كانت قد أجريت لها عملية جراحية.

بعد أن قدمت له القهوة، قال: «قبل أن تبدأي بقيادة السيارة في رحلات الرسم مع أمي أود أن أطمئن إلى حسن قيادتك، يمكنك أن تظهري مهارتك بقيادة سيارتي».

وناولها المفاتيح فذعرت لأن قيادتها لسيارة غريبة غالية الثمن، بينما يراقبها غراي هو محنة ليست مستعدة لها بعد. ومضت لحظة أوشكت فيها أن تقول إنها لا تستطيع، لأنك ستجعلني متوترة الأعصاب. لكنها أدركت أن لاخيار أمامها، فإذا امتنعت سيجد في هذا حجة للتخلص منها. لقد تراجع أولاً عندما تصلبت أمه في موقفها ضده يوم وصول لوسيا. لكنه لن يتراجع للمرة الثانية، فقالت له:

ـ أتظن أن هذا اختباراً عادلاً؟ إن سيارتك ليست من نوع السيارات العادية المستأجرة.

فقال بحزم: «السائق الكفؤ بإمكانه أن يقود أي نوع من السيارات. أنا لا أطلب منك أن تقوديها في زحمة السير، والطرق حولنا هادئة».

وعندما سارا نحو السيارة، تذكرت امتحان القيادة الذي قدمته. كانت متوترة الأعصاب حينذاك، لكنه لم يبلغ حد توترها الآن. كان المراقب رجلاً لطيفاً أصلع صغير الجسم ولم يكن عدائياً مثل غراي. إنه يريدها أن تفشل، تشعر بذلك في أعماقها.

كان مصمماً على التخلص منها إلى حد أنه مستعد للمجازفة بتحطيم سيارته الرائعة كي يصل إلى غرضه.

صرّت بأسنانها واستجمعت كل إرادتها، في سبيل أن تبقى هادئة فلا تدعه يسبب لها الذعر.

فتح غراي لها باب السائق، قائلاً: «أنت بحاجة إلى تسوية المقعد ليناسب ذلك، وسأريك كيف».

صعد إلى المقعد ثم أغلق الباب وسار نحو الباب الآخر فصعد إلى المقعد بجوارها. ودلها كيف تسوي مقعدها، ثم أخذ يطلعها على سائر أجهزة القيادة وما عليها من مختلف اللوحات والأزرار.

كان داخل السيارة يفوح برائحة الجلد الفاخر لكنها لم تكن في مزاج يجعلها تهتم بهذه الأشياء. شعرت بإحباط في عزيمتها وكأنها جالسة في

www.liilas.com

قمرة القيادة لطائرة خاصة.

حين جلس غراي إلى جانبها، بدت لها المساحة الأمامية أضيق مما هي عندما كانت وحدها.

استقام أخيراً في جلسته، وربط الحزام حوله، ثم قال: «حسناً. كل شيء أصبح من عملك الآن».

* * *

بعد ذلك بأربعين دقيقة، عادت بالسيارة إلى البيت وهي تشعر كأنها أمضت أياماً في سباق رهيب لاختبارها عقلياً وجسدياً.

بعد أن أوقفت السيارة، التفتت إليه.

ـ هل أنت راضٍ؟

ـ يبدو أن لديك الخبرة رغم أن شروط الاختبار غير كاملة.

ناولته لوسيا المفاتيح، شاعرة بالغيظ لمواقفه الحاقدة. كادت السيارة تتحطم مرتين، لا بد أن أعصابه من فولاذ كي يتجاوز تلك الحادثتين من دون أن يحاول انتزاع عجلة القيادة منها أو حتى يظهر أي توتر. ولكن، إذا كان ضبطه لأعصابه يدعو إلى الإعجاب، بإمكانها أن تعجب لعدم رغبته في التسليم بحسن قيادتها، رغم طبيعة الاختبار.

قالت بجرأة: «كنت تتمنى لي الفشل، أليس كذلك؟. ما زلت تريدني أن أخرج من هنا».

وأشارت إلى المنزل.

خرج من السيارة وكأنه لم يسمع تعليقها الأخير، وإذ توقعت منه أن يتجه مباشرة إلى باب المنزل، شدت يديها بغضب إزاء غطرسة هذا الرجل. ولكنها دهشت وهي تراه يدور حول السيارة فيقترب من بابها ويفتحه لتخرج. أراح ذراعه على قمة الباب، ونظر إليها بملامح غير مقروءة، وقال ببرودة:

ـ لقد توقعت فشلك فعلاً، فقد كانت المجازفة كبيرة لكنك واجهتها

بكفاءة ومقدرة. أنا معجب بمقدرتك. حافظي فقط على هذا المستوى من الحذر والاهتمام حين تقودين السيارة بأمي.

بذلت لوسيا كل ما لديها من ضبط النفس كيلا تخبره بأنها لم تعرف قط شخصاً مثله مزهواً بنفسه وحاملاً ازدراءً للآخرين. تلك الملاحظة السيئة وقفت على طرف لسانها، وعندما كبحتها، أدركت من لمعان عينيه أنه يعلم ما في ذهنها وهو يتعمد تحريضها على قول شيء يمكنه أن يستغله ضدها.

نزلت من السيارة ثم وقفت وهي تقول بتهذيب ساخر:

ـ سأبذل جهدي. أعدك بذلك.

* * *

ذكرى محاولاته طردها من المنزل لم تبرح ذهنها في كل مرة كانت تركب هي وأمه، السيارة التي استأجرتاها لاستكشاف الأزقة الضيقة والطرق الساحلية الملتوية في تلك الجزيرة الصغيرة «غوراني» التابعة للتاج البريطاني، لكنها أقرب إلى الساحل الفرنسي.

أعلنت روز ماري أثناء ذلك:

ـ أتمنى لو يقوم غراي بزيارة خاطفة لنا ويمضي بيننا يومين.

وكانت لوسيا تتمتم موافقة، وفي داخلها تتمنى العكس. لقد شغفت حباً بهذا المكان ولا تريد أن يتبدد سرورها بحضور غراي المزعج.

كانتا محظوظتين بالنسبة إلى الطقس، حيث تقضيان ساعات في الرسم خارج البيت، وفي اليوم الذي غادرتا فيه الجزيرة، قالت لها روز ماري: «لقد تحسنت صحتك كثيراً».

* * *

نجاح أول رحلة للرسم لهما، جعل روز ماري متشوقة للمغامرة في أمكنة أبعد. كانت تعلم بمنزل في أسبانيا استأجره بعض الأصدقاء لعطلتهم الصيفية ووصفوا لها موضعه المثالي.

في المساء، أعلنت التنبؤات الجوية على شاشة التلفزيون أن امامهم شهراً ممطراً، فاتصلت بأصحاب ذلك البيت على رقمهم الإنكليزي واتفقت معهم على استئجاره لمدة أسبوع قابلة للتجديد إذا شاءت.

وفي الصباح التالي، اتصلت بمكتب سفريات في أقرب مدينة وطلبت حجز مقعدين في الدرجة الأولى على الطائرة المتجهة إلى «أليكانت».

سمع غراي بهذا التطور حين جاء إلى «لاركوود» في العطلة الأسبوعية ليحضر حفلة العشاء التي دعت إليها روز ماري منذ مدة كجزء من برنامج دوري يقيمه أصدقاؤها للاحتفال بضيف ذي مركز هام. وقالت للوسيا: «لقد رتبت أمر المدعوين قبل أن اتأكد من حضورك إلينا، فأرجو ألا تمانعي في عدم حضورك الحفلة».

ـ طبعاً لا، أنا لا أتوقع أن أحضر كل مناسباتكم. وإذا كان بالإمكان، سأمضي السهرة أقرأ في كتابك الجديد (الدليل السياحي).

وكانت مجموعة من الكتب السياحية قد وصلت من لندن هذا الصباح. وصل غراي قبل الضيوف بعدة ساعات، وكان يبدو مرهقاً بعض الشيء كما رأته لوسيا وهو يدخل غرفة الاستقبال وكأنه أمضى أسبوعاً مجهداً.

كانت لوسيا كلما نظرت إليه تراه أكثر حيوية ونشاطاً من أن يقضي حياته وراء مكتب، أو يترأس مائدة اجتماعات. كانت تتصوره، بدلاً من ذلك، في برج قيادة سفينة، أو في مركز قيادي في الجيش... نعم يمكنها أن تتصوره في أي وظيفة من مراسل حربي على شاشة التلفزيون، إلى مدير صالة للمزاد العلني لبيع روائع فنية. لكنه لا يبدو مناسباً لعمله الحالي.

فطول قامته وكتفاه وفكه القوي كلها لم تكن صفات رجل أعمال.

وجدت لوسيا صعوبة في إبعاد نظرتها عنه فقد كان يجذبها كما يجذب المغناطيس الحديد.

خبر رحلتهما الوشيكة إلى اسبانيا جاء ذكره بعد دقائق عندما ذكر

غراي افتتاح فيلم في لندن الأسبوع القادم، قائلاً: «أظنكما ستتمتعان به إنه كوميديا هزلية».

ـ أنا واثقة من ذلك، ولكن علينا أن نراه في وقت آخر.

قالت روز ماري هذا وهي تذكر السبب الذي يمنعها من رؤيته الأسبوع القادم.

توقعت لوسيا أن ترى العبوس على وجهه، لكنها دهشت عندما استقبل الخبر بلامبالاة.

وأعلنت روز ماري أن الوقت حان لتغير ملابسها، فخرجت لوسيا معها.

بعد ذلك بأربعين دقيقة، كانت لوسيا تقرأ كتاب (الدليل السياحي) عندما سمعت نقراً على باب غرفتها. كانت تعلم أن الطارق ليس روز ماري ولا برادي، لا يمكن أن يكون القادم سوى شخص واحد، رغم أنها لا تعرف سبباً يدفعه للقدوم إلى غرفتها.

ـ ادخل.

عندما فتح الباب، وضعت الكتاب من يدها وقد تذكرت يوم اندفع إليها في الحمام، فاحمرت وجنتاها بفعل الذكرى وتمنت أن لا يبدو عليها ذلك.

سألها: «أتريدين شراباً؟».

ـ هذا لطف منك... أعتقد أنني سأقتصر على الماء الليلة.

وأشارت إلى زجاجة مياه معدنية على المنضدة بجانب الكرسي.

كان في الغرفة كرسي آخر، لكنها ترددت في دعوته إلى الجلوس. لو كان صهره توم هو الذي دخل غرفتها، لما توترت هكذا فهو عدا عن كونه زوج محب لزوجته، من نوع مختلف من الرجال. إنه من النوع الذي تشعر النساء معه بالأمان، لكنها لا تستطيع أن تتصور كيف يمكنها أن تشعر بالأمان مع غراي، خاصة وهي ترى رجولته المتدفقة التي تجعلها تراه

www.liilas.com

وكأنه إنسان آخر.

سألها: «هل أنت سعيدة بهذه الرحلة إلى إسبانيا؟». قد تجدان صعوبة في اللغة، وقيادة السيارة إلى اليمين يمكن أن يوقعك في أخطار إذا قمت بذلك لأول مرة».

فسألته بجرأة: «ليس لدي مشكلة بالنسبة لهذا الأمر. هل لديك أنت؟».

انتظر ما يقرب من ربع دقيقة قبل أن يجيب. مما زادها توتراً وأخيراً قال: «لا، بشرط أن تعطيني وعداً بأن تتصلي بي مباشرة إذا ما حدث مكروه».

ـ طبعاً سأعطيك هذا الوعد.

لا بد أنها خطوة إلى الأمام أن يعتبر وعدها موثوقاً به.

ـ هذا حسن.

استدار متجهاً نحو الباب، ثم توقف: «بالمناسبة، عدم حضورك الحفلة لا يجعلك تخسرين شيئاً. إذا كان السيناتور الأميركي المحتفى به يشبه أقاربه من جيراننا الإنكليز، ستكون الحفلة فاترة للغاية، ووجودك هنا أفضل. تصبحين على خير يا لوسيا».

ـ تصبح على خير.

شعرت برعشة غريبة في جسدها وهي تسمعه يخاطبها بإسمها المجرد، لكنها عادت لتقرأ في الكتاب محاولة التركيز على التفاصيل التي قد تنفعهما حين الوصول إلى اسبانيا. ولكن في خيالها، كانت ترى شخصاً طويلاً يهبط السلم... ابن مطيع يأخذ مكان أبيه الراحل في رعاية أمه ويسندها خلال حفلة ليست من اختياره.

كانت هذه حقيقته المتوارية خلف مظهره المهذب اللطيف أحياناً، والمستبد، أحياناً أخرى.

* * *

٨ ـ كل شيء ما عدا القلب!

جلست روز ماري ولوسيا في مقعديهما المريحين في الدرجة الاولى من الطائرة المتوجهة إلى اسبانيا وراحتا ترتشفان الشراب الذي قدم إليهما. وبعد لحظات من جلوسهما سمعتا المضيفة تقول، وهي تشير إلى مقعدين شاغرين بجوارهما: «هنا، يا سيدي».

هتفت الأم وهي ترى القادم: «غراي. ماذا تفعل هنا؟».

ـ أخذت إجازة لبضعة أيام. هل تمانعان أن أرافقكما؟

كان السؤال موجهاً إلى لوسيا أيضاً، لكن أمه بادرت بالإجابة نيابة عنهما معاً: «يا لها من مفاجأة جميلة. ولكن لماذا جعلتها مفاجأة؟ لو أخبرتنا الليلة الماضية لمررنا بك وأحضرناك معنا».

ـ كان يمكن أن ألغي سفري في آخر لحظة.

سألته المضيفة: «هل أساعدك في ترتيب أغراضك، يا سيدي؟».

وأشارت إلى الخزانة الصغيرة فوق رأسه فقال: «يمكنني تدبّر أمري. شكراً».

نظرت لوسيا إليهما وهي تفكر في أن الفتاة ما زالت مضيفة بالنسبة إليه رغم الانتباه الواضح الذي أولاها إياه. بقيت الابتسامة مرسومة على شفتيها، لكن لوسيا شعرت أن أحاسيسها جرحت لعدم اكتراثه بفتنتها الواضحة. ما الذي يجعله يهتم بامرأة؟ يبدو أن ذلك يتطلب أكثر من مظهر ملكة جمال العالم.

www.liilas.com
المحروسة من الله

وجاءت مضيفة أخرى تسأله: «أتريد شراباً يا سيدي؟».

- شكراً، سآخذ ما تشربه هاتان السيدتان من فضلك.

وعندما انتهى من ترتيب حاجياته في الخزانة، كانت صدمة لوسيا لحضوره قد تلاشت، فوقفت تقول له: «يمكننا أن نستبدل مقعدينا».

- لا، لا، إبقي مكانك.

ووضع يديه على كتفيها ليجعلها تجلس. مجرد حركة بسيطة لكن تأثيرها كان كبيراً عليها ربما أكثر مما قصده، فضغط راحتيه وأنامله أرسل قشعريرة في جسدها كله. وعادت إلى مقعدها وهي ترتجف.

جلس بمحاذاتها، ماداً ساقيه بارتياح، فيما همست أمه في أذنها بسعادة: «يمكننا الآن أن نرتاح حقاً. فأيّ مشكلة تواجهنا سيحلها غراي».

ابتسمت لوسيا لها. لم تشعر مثلها بالارتياح لحضور إبنها، فسرورها بأول زيارة لها إلى اسبانيا سيفسده الاحساس بأنها عرضة لنظراته النافذة.

* * *

لم يكن العثور على القرية صعباً، لكنهم واجهوا صعوبة في العثور على البيت لولا وجود غراي. يقع البيت في شارع ضيق، ونوافذه كلها مغلقة كما أقيم أمام الباب حاجز من البلاستيك.

كان على غراي تجاوز هذا الحاجز وإبعاده ليتمكّن من فتح الباب. دخلت المرأتان إلى ردهة معتمة تضم عدة أبواب، كان الباب الذي فتحته روز ماري يؤدي إلى مطبخ واسع فيه نافذة صغيرة تطل على زاوية شارع.

وفيما حاولت روز ماري فتح نافذة المطبخ، اتجهت لوسيا إلى الباب الآخر لتزيح ستائره التي كاد تلامس الأرض المرصوفة بالآجر.

إزاحة الستائر لم تنفع في إدخال الضوء لأن الزجاج الخارجي معتم كزجاج الباب الأمامي.

كانت تحاول أن تتبين طريقة فتحه عندما جاء غراي من خلفها وعثر على شريط من القماش مخفياً وراء الستارة اليمنى.

عندما جذبه بدا أمامهما مشهد هتفت له لوسيا سروراً. رأت شرفة ضيقة يحيط بها درابزين وتعلو فناء تغطيه نباتات متسلقة. خلف سطوح المنازل بدت عرائش العنب وظهرت خلفها سلسلة من الجبال.

فقال غراي: «لا يمكنك أن تجدي عيباً في هذا المشهد».

انتبهت فجأة إلى مقدار قربهما من بعضهما البعض ثم ابتعد عنها، قائلاً: «ماذا يوجد هناك؟».

التفتت فرأته يحرك «قبضة» نحاسية استخدمت لتثبيت بابين مغلقين قام بفتحهما.

- يا له من سقف غير عادي.

قالت روز ماري هذا فرفعت لوسيا نظرها باتجاه ألواح خشبية مائلة مزّينة بالجفصين. كانت الألواح مطلية باللون الأبيض والسقف والجدران بلون الفخار الأحمر الباهت.

أعاد غراي إغلاق الباب، فبانت غرفة مجاورة لها ذات نافذتين مستطيلتين. وبعد أن عرفت لوسيا ما يتوجب عليها فعله، أخذت تحاول فتح إحدى النافذتين بينما تولى هو أمر الأخرى. وبعد لحظات، امتلأت الغرفة الأخرى بالضوء فبدت غرفة جلوس مريحة جدرانها مغطاة بالكتب واللوحات الفنية. كما رأت قطع ضخمة من الحطب قرب المدفأة التي قامت على جانبيها اريكتان مريحتان.

قالت روز ماري: «ما أجمل هذا، منذ دقيقة كنت أتساءل ما الذي جاء بنا إلى هنا. لنرى غرف النوم».

فقال غراي: «سأحضر الأمتعة أثناء قيامكما بذلك».

كان البيت مكوناً من طابقين. في الطابق الأرضي، وجدنا غرفة نوم وحمام، أما في الطابق الأعلى فهناك غرفتان تشتركان بحمام واحد قالت الأم: «الأفضل أن يأخذ غراي غرفة الطابق الأرضي، ونحن سننام هنا. سآخذ هذه الغرفة لأنني معتادة على السرير المزدوج».

www.liilas.com

سرّت لوسيا بغرفتها ذات السريرين المتجاورين ومع أن كل من الغرفتين يحتوي على نافذتين، إلا أن نافذتي غرفتها تطلان على منظرين مختلفين للجبال المحيطة بالمنزل. كانت تتفرج على بطاقات بريدية مصورة ومرسلة من أنحاء العالم عندما سمعت غراي يصعد السلم. وبعد أن وضع حقيبة أمه في غرفتها أتى بحقيبة لوسيا إلى غرفتها.

وضعها على السرير الأقرب إلى الباب، ثم نظر في أنحاء الغرفة قبل أن يقول:

- أنا لا أحب أن ينزل غرباء في منزلي. هل أنت كذلك؟

- لعلهم بحاجة للمال الذي يحصلون عليه من تأجيره.

- وربما. رغم أن طريقة بنائه وتأثيثه لا تدل على حاجتهم للمال.

وأخذ يربت على تحفة أثرية بجانبه.

فقالت موافقة: «هذا صحيح. ربما تغيرت أحوالهم بعد أن اشتروه وأثثوه، فالخطط لا تنجح دوماً. الأمور تسوء بالنسبة إلى الكثيرين، وتأجير بيتك للغير أفضل من بيعه».

فقال هازاً كتفيه: «وربما».

وعندما غادر الغرفة، فكرت في صعوبة أن يفهم رجل غارق في الثراء منذ مولده، معنى الحاجة إلى المال.

* * *

في اليوم التالي، وفيما كانت المرأتان ترسمان، قصد غراي الساحل ليرى التغيّرات التي طرأت على بلدة صيد السمك الصغيرة التي عرفها في الماضي. كانت مجرد بلدة حينذاك، بالكاد تبدو أكبر من قرية، لكنها الآن توسعت ونمت إلى حد كبير.

لكن الكهف الصغير خلف الميناء ما زال كما هو، منذ ثمانية عشر عاماً. مارس السباحة والغوص مدة ساعة ثم قصد إلى أحد المقاهي على الرصيف التي تقدم طعاماً للسياح وكبار السن من الأجانب المتقاعدين

الذين يقضون بقية حياتهم في هذا المكان.

وأثناء عودته إلى حيث أوقف السيارة، لاحظ مكتبة صغيرة تحوي واجهتها كتباً مستعملة معظمها ذات عناوين انكليزية. فخطر بباله أن يبحث عن الكتاب الذي كانت أمه تحدثت عنه أثناء الفطور وقالت لوسيا إنها تحب أن تقرأه عند عودتهم إلى انكلترا.

* * *

ذهب غراي إلى سريره مبكراً ليقرأ الكتاب الذي اشتراه وعندما سمع نقراً على بابه، أخفى الكتاب وتناول آخر ثم نادى: «أدخلي».

دخلت أمه وهي تلبس «كيمونو» من القطن كان قد أحضره هدية لها من رحلة إلى اليابان، فقالت: «ليس من عادتك أن تذهب إلى السرير مبكراً، يا حبيبي، هل تشعر بوعكة؟».

فابتسم لها: «أشعر بأنني في أحسن حال، لقد استيقظت هذا الصباح قبلك».

كان قد استيقظ مع بزوغ الفجر وتمشّى نحو ساعة على ضفاف النهر، وتأمل النباتات النادرة الجمال.

جلست الأم على حافة السرير، وقالت:

- لطف منك أن تشتري ذلك الكتاب للوسيا. هل رضيت عن وجودها الآن أكثر مما كنت عليه في البداية؟

- أنت تعلمين أنني لا أستطيع مقاومة أيّ مكتبة. ولقد رأيته مصادفة وأنا أنظر حولي.

- أنت تتهرب من السؤال.

- ليس الأمر كذلك، فأنا لم أحدد شعوري نحوها. فالرجال لا يمضون الساعات في تحليل مشاعرهم كما تفعل النساء، إلا إذا تعلق الأمر بشيء هام كالعمل مثلاً.

فقالت: «العلاقات الإنسانية هامة جداً. لو لم تكن راضياً عن لوسيا،

www.liilas.com

لما اشتريت كتاباً لها. لا أفهم كيف لا يحبها أي شخص استطاع معرفتها عن قرب».

- لم أقض معها من الوقت ما قضيته أنت. ويبدو أنها ذات شخصية جيدة أكثر مما كنت أظن منذ عام.

- عاجلاً أم آجلاً، عليك أن تبحث الأمر معها، فتعرف منها لماذا فعلت ما فعلت. هذا سيصفي الأجواء بينكما.

- بالنسبة إلي، كل ما يهمني هو أن تكون مفيدة لك. وما دامت كذلك لن تحصل لها مشكلة إلا إذا تجاوزت الحد. الأمر في غاية البساطة.

تنهدت الأم: «موقفك هذا طبيعي كما أعتقد. على الأقل لست حقوداً مثل أبيك وجدك. إنهما لم يرتكبا معصية قط، ولديهما فكرة «دراكولية» بالنسبة لعقاب من يفعل ذلك.

وقطبت جبينها قبل أن تسأل: «ما هو اصل هذه الكلمة يا ترى؟».

فقال: «كان «دراكولا» حاكماً في بلاد الإفرين ففرض الموت على كل من يرتكب ذنباً مهما كان نوعه. وبعد ذلك بقرن تقريباً، سنّ حاكم آخر اسمه «سولون» عقوبات أكثر تسامحاً ووضع الأسس للديموقراطية الإفريقية».

- يا لك من مثقف! أنا جاهلة بالنسبة إليك... لكنني، على الأقل، أفهم الناس، وهذا ما لا أظنك تفعله دوماً. إن لم تدن لا تدان يا عزيزي.

نهضت واقتربت منه ثم انحنت وقبلته على جبينه كما كانت تفعل وهو صبي صغير، ثم دثرته بالغطاء جيداً، قائلة: «ما أجمل أن تكون هنا. أنت بهجة حياتي يا غراي. تصبح على خير».

- تصبحين على خير، يا ماما.

راقبها وهي تغادر الغرفة من دون أن تنظر خلفها. كان في صوتها غصة حين قالت له (أنت بهجة حياتي). وتكهن بأن دموعاً في عينيها منعتها من أن تنظر خلفها وهي تغادر الغرفة.

إنها سريعة التأثر، لكنها لطالما كبتت مشاعرها لأن المشاعر الواضحة كانت تربك أباه. تحدث في إحدى المرات إلى «جيني» عن علاقة والديهما الجنسية وما عساها تكون، فقالت جيني إنها لا يمكن أن تكون مرضية لأمهما، وقد وافقها على ذلك حينها. ولكن بالرغم من أنه يتحدث إلى مع جيني في أي موضوع، إلا أن لديه سر لم يكشفه لها قط... عبء ثقيل لا يمكنه أن يطلع عليه أحداً.

أبعد ذلك عن ذهنه وعاد يفتح الكتاب الذي كان يقرأه قبل دخول أمه. كان عن سيرة حياة رجل أمضى عمره في تزييف اللوحات الفنية المرسومة بريشة كبار الفنانين ثم بيعها بمبالغ طائلة. كان ماهراً في عمله بحيث لم يكتشف أمره أحد وتمنّى غراي أن يساعده الكتاب في فهم عقلية المرأة التي تقيم في الغرفة التي تعلو غرفته.

* * *

سمعت لوسيا همهمة أصوات خافتة وهي مستلقية في سريرها تقرأ في الكتاب الذي اشتراه لها غراي. كفت عن القراءة وأخذت تتساءل عمّا إذا كان بإمكانها اعتبار تصرفه اللطيف معها دليلاً على أن موقفه اتجاهها بدأ يلين.

لم تعد تستطيع الإدعاء بأنها لا تبالي بموقفه منها، وأخذت تدرك رغماً عنها، أن رأيه فيها يهمها للغاية.

* * *

استلقت روز ماري في غرفتها تقرأ كتابها المفضل عن فن الطهو، لكن ذلك لم يطرد افكارها القلقة بشأن ابنها. كانت تعلم أن غراي ليس سعيداً والسبب الوحيد لذلك برأيها هو فشله في العثور على امرأة تناسبه.

كان يمتلك، باستثناء الزوجة والأولاد، كل ما يتمناه الرجل، فهو في القمة في دنيا الأعمال، ويتبع نمط حياة يحسد عليه. ورغم أن عليه

www.liilas.com
المعروضة من الناشر

الاجتهاد في عمله، إلا أن بإمكانه أن يقضي ما يشاء من الإجازات في أجمل بقاع الدنيا.

ربما لم يلاحظ أحد من أصدقائه الكثر بأن ذلك كله لا يرضيه. لكنها أمه، وهي تعلم أنه يفتقد شيئاً ما. وعندما تطرقت إلى الموضوع مع ابنتها جيني ذات مرة ردت عليها: «أنت تتخيلين ذلك، يا ماما، غراي لا ينقصه شيء، ولعل علاقاته أكثر وأفضل من الزواج العادي. إن جيله حذر جداً في مسألة الزواج... إذا كان عليه أن يقسم ما يملك عند الطلاق، فستكون غنيمة طليقته عظيمة. ثم لماذا يريد أولاداً ولديه أولادنا يتسلى بهم... ثم يعيدهم إلينا عندما يشعر بالضجر؟».

ـ ولكن كل شخص يحتاج إلى أن يكون محبوباً، يا جيني. إنها سنة الكون.

ـ النساء هن اللواتي يحتجن إلى الحب. أما الرجال فيفضلون السلطة والمال وامرأة جديدة كلما تملكهم الضجر من المرأة التي بين أيديهم. لكل قاعدة استثناء لكنني لا أظنه يشمل غراي. إنه واقعي وليس شاعرياً.

كان هذا رأي ابنتها، وهذا ما سبب الكآبة لها والألم. فهي لا توافق أن ابنها الحبيب يملك كل شيء ما عدا القلب.

حضوره إلى اسبانيا جعلها تتساءل في البداية عما إذا كان يهتم بلوسيا. لكن حديثها القصير معه هذه الليلة بدّد من ذهنها هذه الفكرة المقلقة. فروز ماري تحب الفتاة كثيراً، وسرّتها قدرتها على مساعدتها لكن أن يهتم غراي شخصياً بلوسيا فهذه كارثة حقيقية. الفتاة لا تملك من الصفات ما يؤهلها لأن تكون زوجة المستقبل، فهي من بيئة مختلفة إضافة إلى سقوطها في ذلك الإثم. ورغم أنه قابل للصفح، لكن لا يمكن نسيانه. وإلى آخر حياتها، سيكون هناك من يبحث في ماضيها ويحيك الأقاويل عنها. قد لا يكون ذلك مهماً لدى رجل من عامة الناس، لكنه سيكون

محرجاً لأي رجل كابنها، الذي تجذب تحركاته انتباه الصحافة.

* * *

كانت لوسيا تقود السيارة المستأجرة نحو أقرب مدينة لتشتري سمكاً للعشاء، حين مر شيء أمامهما، ولم تستطع الضغط على المكابح لأن سيارة رياضية حمراء كانت خلفها مباشرة. شعرت بالصدمة عندما ضربت العجلة الأمامية ذلك المخلوق، فجفلت وأضاءت مصباح السيارة، ثم ضغطت على المكابح بشدة.

كان الطريق مستقيماً فاستطاع سائق السيارة الرياضية أن يتجاوزها بسلام، لكنها لم تكترث بل صبت معظم انتباهها على الحادث، وسرعان ما قفزت من السيارة إلى الخلف لترى ما إذا كان الحيوان قد قتل أو أصيب بشكل بالغ.

كانت قطة رمادية صغيرة. ظنتها في البداية ميتة، ثم فتحت عينيها وأطلقت مواء وهي تحرك مخالبها الأمامية في محاولة فاشلة للتهوض على قائمتيها الخلفيتين المصابتين.

جمدت لوسيا برعب للحظة. لم تكن تعرف ماذا تفعل، فقد تخمشها القطة إن حاولت رفعها. ولم يكن ثمة بيوت في هذه الأنحاء، فأين ستجد طبيباً بيطرياً؟

سمعت وقع أقدام تركض نحوها فألقت نظرة من وراء كتفها. كان سائق السيارة الرياضية قادماً وشعرت بارتياح لم يدم طويلاً إذ حل محله رعب شديد وهي تراه يحمل أداة زراعية ثقيلة.

تحدث إليها باسبانية سريعة، لم تفهم منها سوى كلمة واحدة... سنيوريتا.

ركزت وهي تستعيد جملة حفظتها عن ظهر قلب كي تداري ضعفها في اللغة.

ويبدو أنه تكهن بجنسيتها من لهجتها، فقال: «لا بأس. أنا أتكلم

www.liilas.com

الإنكليزية. عودي إلى سيارتك يا سينوريتا وسأعتني بهذ الحيوان».

ـ لكنك ستقتلها. ربما، إذا أخذناها إلى بيطري، يمكنه إنقاذها.

بدا الشك على الرجل وقال: «قد لا تكون قطة منزلية. هناك قطط كثيرة يلقي بها الناس في الطرق الريفية، فإما أن تموت جوعاً أو تتعلم إعالة نفسها. وإذا أصيبت، فلا يعود بإمكانها الصيد. لقد رأيتها تجري أمام سيارتك، وربما كانت تلاحق فأرة».

قالت وهي تعجب للغته الإنكليزية السليمة تقريباً: «وماذا لو كانت تخصُّ أحداً؟ أظن أن علينا أن ننقذها».

ـ حسناً، إذا كنت تصرين. إنتظري هنا حتى أحضر قفازات سميكة، فلن أجازف بتعريض يدي لضربات مخالب هذه القطيطة حتى ولو لأبعث الإبتسامة في هاتين العينين الرائعتي الجمال.

وعلى الفور بدت في عينيه السوداوين نظرة عابثة، ثم عاد راكضاً إلى سيارته، تاركاً إياها تشكر الحظ الذي أحضره إلى هذه الطريق في الوقت المناسب.

* * *

٩ ـ بلا مستقبل!

بعد ذلك بنصف ساعة وبعد إدخال القطيطة إلى عيادة البيطري «جوليان هرنانديس»، أصرّ رفيقها على أن تدخل معه إلى مقهى قريب لاحتساء فنجان قهوة.

رحبت بهذه الفرصة التي تتيح لها فرصة تبادل حديث شيق مع شخص إسباني. وعندما أجابت على سؤاله عمّا تفعله في اسبانيا، سألته بدورها: «هل تسكن في هذه المنطقة؟»

ـ لا، لا. أنا أسكن في برشلونة. هل سبق لك أن زرتها؟

ـ هذه أول مرة أحضر فيها إلى اسبانيا، لكنني رأيت «أليكانت» في طريقنا من المطار.

ـ أليكانت جميلة، لكنها صغيرة وبسيطة بالمقارنة مع برشلونة، أجمل مدن أسبانيا.

ـ هل هي أجمل من مدريد؟

ـ أجمل بكثير.

وغمز بعينيه.

ـ أنا كاتالوني وبرشلونة عندي أجمل مدينة في العالم.

فسألته: «وما الذي جاء بك إلى هنا؟».

ـ السبب الذي جعل لغتي الانكليزية جيدة بهذا الشكل. كانت مربيتي، وأنا فتى، انكليزية، وهي لم تتزوج حتى بلغت الثالثة والخمسين.

www.liilas.com
المحروسة من الشيطان

حين قابلت الرجل الذي كانت تحبه، في برشلونة، كانت زوجته قد ماتت وقد جاء للعيش على الساحل هنا، أو الساحل الأبيض كما يسمونه وذلك منذ عشر سنوات. وحين مات هاري قررت مربيتي أن تنتقل إلى داخل البلاد. إنها تتكلم الأسبانية بطلاقة وتفضل ما تسميه «اسبانيا الحقيقية» على الجماعة المنفية في الساحل، لكنها الآن تجاوزت السبعين وأنا أحاول إقناعها بالعودة إلى برشلونة حيث يمكننا أن نرعاها في شيخوختها.

السيارة الرياضية الفاخرة وساعته الذهبية الثمينة ونوع ملابسه، كل ذلك ترك لدى لوسيا انطباعاً بأنه غني. وما قاله الآن أثبت ذلك.

بدا أكبر منها بسنوات قليلة، لكنه حتماً لم يتجاوز الثلاثين. كانت رفقته ممتعة حقاً. وعندما تصافحا، كما يتصافح المراهقون الأسبان، شعرت وكأنها تعرفه منذ مدة أطول بكثير من ساعتين.

***

أثناء تناولهم الغداء تحت المظلة في فناء المنزل، أخبرت لوسيا الآخرين عنه. فقالت روز ماري: «يا لها من قصة شاعرية. ولكن كم هو محزن ألا يعيش هاري حتى يبلغ الشيخوخة. هل سترين هذا الشاب اللطيف مرة أخرى؟».

- قال إنه سيكتب لي ليخبرني عن القطيطة. لدى مربيته قطة وقد تتمكن من أن تعرف هوية صاحب القطة.

فقال غراي: «إذا كانت إصابة القطة سيئة جداً، فالأفضل قتلها على الفور. الحيوانات ليست كالناس، فهي لا تملك عقلاً مدبراً يجعل حياتها محتملة إذا أصيبت بعجز».

فسألتها أمه: «هل اقترح البيطري ذلك، يا لوسيا؟».

- لا. قال إنه سيفعل ما في وسعه لانقاذها.

فقال غراي: «البيطري يستفيد من إبقاء القطة حية».

فقالت امه باحتجاج: «يا له من قول يدعو إلى السخرية. إنا واثقة من أن البيطري لا يمكن أن يترك حيواناً يتألم من دون ضرورة، فذلك يناهض كل ما يمثله».

رفع غراي حاجبه ساخراً ولم يقل شيئاً. وتساءلت لوسيا عما إذا كان يعتقد أنها مسؤولة نسبياً عما جرى للقطة. لكنها تشك في أن يتمكّن هو من أن يتجنب ما حدث.

بعد لحظات، سمعوا رنين الهاتف في داخل المنزل، فقال: «سأذهب للرد».

قالت الأم وهي تنظر إليه يقفز صاعداً الدرجات إلى الشرفة العليا: «لعل المتصل إحدى بناتي تسأل عن حالنا».

لكنه لم يستدعها إلى الهاتف وجاء بعد دقائق ليقول: «السيدة «أليس هندرسن» تتساءل عما إذا كنت تقبلين دعوتها على الشاي في الساعة السادسة والنصف من هذا المساء. قلت لها إنك تتناولين غداءك وإنك ستتصلين بها فيما بعد».

وإزاء نظرات أمه الحائرة تابع يقول: «السيدة هندرسن هي العربية المتقاعدة التي يزورها رجل لوسيا الاسباني. ربما الدعوة من اقتراحه كطريقة لمتابعة تعارفهما».

فقالت لوسيا: «لماذا لا تظن أن السيدة هندرسن ستستمتع بالتعرف إلى والدتك حتى ولو كانت لا ترغب في العيش محاطة بالمغتربين؟ لعلها تفتقد أحياناً من تستطيع التحدث معه».

فقالت روز ماري: «أحب أن أتعرف إليها. أين تسكن يا غراي؟».

- في القرية القريبة الوحيدة المشرفة على الوادي. لقد كتبت عنوانها في دفتر التلفون، ولن تجدي مشكلة في العثور عليه.

- ألن تأتي معنا؟

- لا داعي لوجودي. إنها تريد أن تتحدث إليك. أنا واثق من أن رجل

www.liilas.com

لوسيا الاسباني سيفضل أن يحتكرها لنفسه.

قال هذا بشيء من السخرية، فاحمر وجه لوسيا وقالت بحزم: «جوليان ليس رجلي الأسباني. هو في الواقع من كاتالونيا ويبدو أنه فخور بهذه الميزة».

فسألت الأم: «وما هي هذه الميزة؟».

فقال غراي: «كاتالونيا هي اكبر المناطق الصناعية في اسبانيا، وسكانها انفصاليون يعتبرون بقية سكان البلاد متخلفين بالنسبة لهم».

ونهض واقفاً: «سأحضر القهوة».

وعندما ابتعد قليلاً، قالت أمه: «يبدو غراي متوتراً. أظنه يعاني من أعراض الانطواء على الذات حين يكون بعيداً عن العمل أيام عدة. إنه مدمن عمل كأبيه وانمنى لو يتعلم الاسترخاء فالمكان هنا جميل للغاية، أليس كذلك؟».

قالت لوسيا وهي تنظر إلى النحل يطير بين ازهار اللافندر: «نعم، إنه كذلك».

بالرغم من جوّ السكينة في الفناء، لم تكن تشعر باسترخاء تام. إشارات غراي المتكررة إلى جوليان بصفته (رجل لوسيا الأسباني) كدرتها. بدا غراي في مزاج صعب، ربما لأنه يفتقد عمله. ولكن كيف لإنسان أن يحنّ إلى ذلك العالم المادي المتكلف عندما يكون هنا في هذا المكان الحقيقي البهيج. وإذا كان كذلك حقاً، فقيمه مختلفة جداً عن قيمها.

* * *

أوصلهما غراي بالسيارة إلى منزل السيدة هندرسن. كانت الستائر مسدلة على النوافذ المواجهة للشارع كلها.

فتح جوليان الباب ثم قدم نفسه للسيدة كلدروود وصافحها قبل أن يشير إليها بالدخول إلى حيث وقفت السيدة هندرسن لتحيتهم. قالت له

لوسيا: «مرحباً يا جوليان».

ثم التفتت تقدم إليه غراي فتصافح الإثنان.

لم تكوّن رأياً واضحاً عن مضيفتهم إلا بعد أن خرجوا إلى الحديقة. لم تجدها كما تصورتها، دافئة وواهنة العزيمة لتقدمها في السن. كانت صغيرة الجسم وشعرها الرمادي قصير، أما وجهها الذي لوحته الشمس فتجعدّ كزبيبة.

كانت ترتدي قميصاً رجالياً وسروالاً وتنتعل حذاء خفيفاً في قدميها، وبدت مليئة بالحيوية والطاقة.

لفتها في الحديقة بيت للطيور يحوي طيوراً صغيرة مختلفة الأنواع، وبجانبه سلم يؤدي إلى السطح. فقالت السيدة هندرسن وهي تصعد السلم كصبية في العاشرة: «سأسير أمامكم، فأنا أخرج معظم الأيام لتسلق الجبال واعرف كل طرق البغال القديمة. جوليان يحاول أن يقنعني بالانتقال إلى برشلونة لكنني سأكون هناك كأسد في قفص. أحببت حياة المدينة حين كنت شابة، أما الآن فالأمر مختلف».

وفيما أخذ جوليان يسكب الشراب، قال غراي لمضيفته:

ـ أعجبتني خرزات عقدك التي تمنع الإصابة بالعين. هل اشتريته من تركيا؟

ـ إذن، أنت لاحظتها؟.

ورفعت يدها إلى العقد ذي الخرزات الزرقاء اللامعة، التفصيل الوحيد في ملابسها الذي يشير إلى أنوثتها. وتابعت: «نعم اشتريته أثناء إجازة في تركيا. هل تعرف تلك البلاد؟».

قال غراي إنه يعرفها ثم دار بينهما حديث جذب انتباه الأخرين. وراحت لوسيا تفكر في تصرفاته الساحرة حين يشاء، وتساءلت عن شعورها لو تحوّل سحره نحوها ولكن هذا احتمال لا يمكن حدوثه.

بعد ذلك بساعة تقريباً، رفضت روز ماري باسمة، محاولة جوليان أن

يعيد ملء كأسها، قائلة: «يجب أن نذهب. وشكراً جزيلاً لهذه الدعوة، يا سيدة هندرسن. تبدو المناظر من منزلك رائعة».

فقال جوليان: «سآخذ لوسيا إلى العشاء في مطعم محلي. ويسرنا جداً إذا أتيتم معنا. يبدو أن مربيتي وابنك منسجمان معاً».

ونظر إلى غراي والمربية اللذين كانا مستغرقين في الحديث عن مناطق غرب اسبانيا، فقالت روز ماري: «قد ترغب لوسيا في احتكارك لنفسها لأنك لن تمكث هنا طويلاً».

فقال جوليان وهو يلتفت إلى لوسيا: «قررت تمديد إقامتي».

كانت الرسالة واضحة فهو يهتم بها، ولم تستطع منع نفسها من الشعور بالغرور. لكن الأمر في الوقت ذاته، معقد ولا تريد مواجهته. كانت ترى أنه رجل جذاب للغاية، لكنه لم يجذبها.

رجل واحد هو من جذبها، لكن من دون مستقبل لهما معاً. عليهما أن يكونا في جزيرة منعزلة القتهما عليها سفينة محطمة، قبل أن يراها بالطريقة التي يراها فيها جوليان.

وأجابته روز ماري: «في هذه الحالة سيسرنا قبول دعوتك وشكراً لك».

***

عندما رأى غراي أن أمه وافقت على تناول العشاء في الخارج مع ألبس، كما طلبت منه السيدة هندرسن أن يدعوها، وذلك الشاب المصقول الناعم الحديث الذي يشعر بالسرور، لم يكن مسروراً.

بدا واضحاً أن الشاب «زير نساء» رأى في لوسيا شيئاً مغايراً لفتيات برشلونة الواثقات من أنفسهن وسيداتها الضجرات من رجالهن. إنه يلاقي صعوبة في إغرائها لأنها تختلف عن نساء البحر المتوسط في الشكل كما في اللكنة الاجنبية، وهي صفات تساهم في الترغيب بها.

أختار مطعماً لا يبعد اكثر من امتار عن المنزل، فقصدوه سيراً،

على الأقدام. النساء الثلاث في الوسط والرجلان على الجانبين، وكانت لوسيا تسير إلى الجانب وهي تضحك للنكات التي يتحفها بها جوليان. لقد غير الضحك شكلها كما لاحظ غراي، فجعلها تبدو أصغر سناً كما كانت قبل مرض أبيها وقبل أن تنحرف حياتها. ولكنها إذا استسلمت لإغراء جوليان، تكون قد ارتكبت خطأ آخر. لعلها من النساء اللواتي لا يحسن الحكم على الأمور، ويفسدن سمعتهن بحماقاتهن.

***

www.liilas.com
المحروسة من العنان

١٠ ـ عناق خشن

لموعدهما في الليلة التالية، حجز جوليان مائدة في مطعم مشرف على شاطىء «أرنيال» المشابه لشكل الهلال. كانت المائدة تحت مظلة تحجب أشعة الشمس وحرارتها. وفي أمسية ربيعية عابقة بأريج الأزهار، كان هذا الركن أكثر أقسام المطعم شعبية والمائدة المحجوزة لهما من أفضل الموائد المطلة على البحر والرمال الساحرة.

ومن طريقة ترحيب موظفي المطعم بجوليان، استنتجت لوسيا أنه من الزبائن الدائمين ذوي الشأن.

سألته حين طلب العصير وهو يدرس قائمة الطعام: «ما ذلك البناء القائم هناك بين أشجار النخيل؟».

ـ إنه أحد الفنادق التي تديرها الحكومة. وهو فندق عصري. لكن الكثير من الفنادق كان في الأصل قصراً أو بناء أثرياً. وهي عموماً أفضل الأماكن لإقامة النزلاء. أسعارها لا تزاحم، كما أنها تقدم أطعمة محلية تدعى «بارادور».

أحضر العصير مصحوباً بأنواع المقبلات المختلفة كالزيتون المحشو وبيض السمان المرقط وغير ذلك. وبعد أن اختارا الطعام مال جوليان إلى الأمام قائلاً: «لا أفهم نوع علاقتك بغراي، أوضحي لي».

ـ إنه ابن مخدومتي.

ـ لكن خروجك معي للعشاء لم يعجبه. لقد تجهّم حين دعوتك الليلة

الماضية، وعندما قبلت دعوتي حملق فيك. أظنه يفضل أن تتناولي العشاء معه.

ـ لا، لا. أنت مخطىء، فهو لا يهتم لأمري... أنا بالنسبة إليه مجرد مرافقة مناسبة لأمه في السفر... وهذا لا يعني أنه يراني مناسبة.

ـ أعلم أنه من الصعب على الفنان كسب عيشه، لكنني لا أفهم تماماً لماذا أنت بحاجة إلى مساعدتها في الرسم. ألا يمكنك أن تجدي عملاً أكثر أهمية؟

ـ ربما، لكن هذه الوظيفة قدمت إليّ بعد أن خرجت من عزلة. كان أبي مريضاً على الدوام فتركت عملي لأرعاه.

في هذه المرحلة من تعارفهما لم تجد لوسيا ضرورة لأن تخبره عن السبب الآخر لعزلتها.

ـ آسف لسماعي ذلك.

كانت يدها اليمنى تعبث بكأسها فوضع يده على معصمها بحركة بدت عفوية تعبر عن تعاطف معنوي. وبعد أن ضغط على معصمها لحظة، أبعد يده قائلاً: «هل رعاية السيدة كلدروود لك مؤقتة؟ وهل تبحثين عن شيء يرضي طموحك أكثر؟».

ـ ليس الآن. أنا أستمتع حالياً بهذه الفرصة لرؤية أسبانيا. وعلى المدى الطويل، لست واثقة مما أريد فعله.

لكنها فجأة، أدركت أن هذا غير صحيح.

الطموح الذي ابتدأت به حياتها لم يعد يلهمها. ومع اقتراب عيد ميلادها الخامس والعشرين، إذا بأمر جديد ملح يبدو أكثر أهمية.

ولأنها وحيدة والديها، لطالما تصورت نفسها أماً لعدة أولاد. كانت تعلم أنها، إذا تمكنت من ترتيب أمر المستقبل، ستمضي السنوات القادمة في إنشاء أسرة. ليس لأنها تريد أولاداً وحسب وبل لأنها تحتاج إليهم بصفتها فنانة.

www.liilas.com
المجموعة من الإنترنت

مرت فترة كانت تحلم فيها بالشهرة وذلك بكتابة قصص خيالية للأطفال. ولتفعل ذلك، كانت بحاجة إلى دراسة نفسية الأطفال، وهل هناك أفضل من أن تقوم بذلك في أسرتها؟ لكن قبل أن يكون للمرأة أطفال، عليها أن تجد رجلاً يود إنجابهم. لن تختار أي رجل لذلك، بل يفترض أن يكون رجلاً تحبه، فيا لسخرية القدر! عندما وجدته كان آخر رجل في العالم يفكر في أن ينشىء أسرة معها.

قال جوليان يعيد انتباهها إليه: «إن وجهك من أكثر الوجوه تعبيراً. إنه يعكس افكارك بشكل غريب، في أقل من نصف دقيقة بدوت سعيدة متحمسة وسرعان ما ظهرت بالغة الحزن. بما كنت تفكرين؟».

ـ أمور كثيرة. أنت تعلم كيف تنتقل الأفكار. أخبرني عن عملك، يا جوليان.

ـ أنا مدير الدعاية والعلاقات العامة لأعمال أسرتي في بناء السفن. بدأ عملنا منذ عدة أجيال بشركة صغيرة لبناء مراكب الصيد بالطرق التقليدية. والآن، نصنع اليخوت والزوارق البخارية لتلبي الطلبات. وعلى طول هذا الساحل قوارب غالية الثمن، الكثير منها من صنعنا.

ـ هل تحب عملك؟

ـ لا أفضل عملاً عليه ولا أريد أن أصبح المدير مثل أخي الأكبر، أو رئيس قسم المحاسبة، مثل أحد أبناء عمومتي. لكن الوضع المناسب الذي خلقته لنفسي هو الأكثر متعة. دفعنا من قبل الكثير من المال لشركات الإعلان، لترويج إنتاجنا فلم نصل إلى نتيجة مرضية. لكنني الآن أقوم بالعمل بشكل أفضل.

قال هذا بابتسامة عريضة منعت ادعاءه من التحول إلى مبالغة في المباهاة.

تحايلت لوسيا لكي تجعله يتحدث عن هذا الموضوع طوال العشاء. كانت مهتمة حقاً، لكنها أرادت أيضاً أن تتجنب مزيداً من الأسئلة عن

حياتها.

لم تعرف السبب الذي جعل غراي يشعر بالغيظ عندما دعاها جوليان للعشاء الليلة. كل ما ظنته هو أنه لا يريدها أن تستمتع، وأنه كان يفضل إبقاءها في السجن أطول مدة ممكنة، لو أنّ الأمر بيده.

قال جوليان: «ها قد بدا وجهك تعيساً مرة أخرى! هل قلت ما يذكرك بشيء يزعجك؟».

فأجابت بمرح: «لا شيء. أنت تتخيّل ذلك. أخبرني بالمزيد عن عملك في العلاقات العامة».

* * *

كان المنزل غارقاً في الظلام عندما أوقف جوليان السيارة وترجّل منها ليفتح الباب.

ـ شكراً جوليان، كانت سهرة جميلة.

تكلّمت بصوت منخفض، رغم أن غرف النوم تقع في الناحية الأخرى، ولم يكن متوقعاً أن يسمع من فيها أي صوت سوى جلبة الشارع.

قال وهو يضع يديه على كتفيها ويميل إلى الأمام ليقبلها على وجنتيها: «تصبحين على خير، يا حلوة، ونامي جيداً، كما اعتادت مربيتي أن تقول لي».

كانت تمسك المفتاح بيدها فأخذه منها وفتح الباب ثم أعاده لها. عندما دخلت وأغلقت الباب، سمعت صوت سيارته وهو ينطلق.

لم تكن الستائر مسدلة على النوافذ، لذا أنار الشارع ضوء الغرفة. فتحت باب المطبخ لتحضّر لنفسها كوباً من الشاي، فتنبّهت أن أحد مصابيح غرفة الجلوس قد ترك مضاء.

توجهت إلى غرفة الجلوس لتطفىء مصباحها، لكن الغرفة لم تكن خالية كما ظنت. وجدت غراي جالساً على إحدى الأرائك وبيده كتاب وعلى المنضدة بجانبه، كأس مستطيلة.

www.liilas.com
المحروسة من الله

قالت: «آه، لم أتوقع أن أجدك مستيقظاً».

وضع الكتاب جانباً ثم نهض وتناول كأسه الفارغة.

- نادراً ما أذهب إلى الفراش قبل منتصف الليل. كيف أمضيت سهرتك؟

- ممتعة جداً، شكراً. هل خرجتما، أنت وأمك؟

- إلى القرية لتناول شراب قبل العشاء تحت الأشجار.

فسألته: «أريد أن اصنع كوباً من الشاي. هل تريد واحداً؟».

- لا، شكراً.

أخذ الكأس وملأه بالماء ثم سألها: «هل سترين هرناندز مرة أخرى؟».

شيء ما في نبرته جعلها ترد: «ربما. هل لديك اعتراض على ذلك؟».

- لا، طالما تدركين أن الرجال الأسبان يعتبرون نساء شمال أوروبا أكثر حرية وسهولة من فتياتهم هنا، ولا تستغربي إذا حاول في المرة التالية أن يتحرش بك.

فقالت ساخطة: «سأدهش جداً. فأنا لا أعتقد أن جوليان من أولئك الذين يتقربون من الناس بناء على تصميم مسبق. أنا واثقة من أنه لن يتجاوز الصداقة بدون تشجيع واضح».

رفع غراي كأس الماء إلى شفتيه واحنى رأسه ليأخذ جرعة طويلة. حركته تلك لفتت انتباهها إلى رقبته القوية، فحولت عينيها عنه، غاضبة من نفسها لإهتمامها بهذه التفاصيل في حين أن ذهنه مليء بالكراهية لها.

قال ببرودة: «قد يعتبر خروجك معه تشجيعاً كافياً له. إذا لم تكوني مهتمة به حقاً، فلماذا تخرجين معه؟».

- لأنني مهتمة به. ولكن ليس بالطريقة التي تعنيها. إنه أول رجل إسباني أقابله، كما أنه يتكلم الإنكليزية لذا لا يوجد بيننا حاجز لغوي. كان

يحدثني عن عمله.. عن برشلونه، عن المناطق الأسبانية الأخرى. ألم يدر بينك وبين امرأة حديث جاد قط؟ هل كل مواعيدك مع النساء قائمة على الهدف الذي تتهمه به؟

كانت قد بدأت الكلام بهدوء وتعقل. وإذا بها فجأة تفقد صبرها معه فتنتهي بتوجيه الأسئلة بشكل عدائي واضح.

ما حدث بعد ذلك كان أشبه بالرعد في يوم مشمس فبخطوتين واسعتين صار قربها وأمسك بكتفيها بطريقة مختلفة جداً عن حركة جوليان حين افترقا، ثم انحنى ليعانقها عناقاً خشناً.

* * *

www.liilas.com
الموسوعة من الحنان

١١ ـ هروب إلى الماضي...

بدا واضحاً أنها حركة تأديبية مما جعلها تشعر بصدمة وكأنه ضربها. لكنه أنزل يديه عن كتفيها إلى أعلى ذراعيها، وجذبها إليه بشدة ليواصل معانقتها برقة. حين لمسها شعرت لوسيا بالضياع، أرادت أن تقاومه.. أن تبعده عنها، أن تظهر غضبها ونفورها... لكنها لم تستطع.

ما قرأته أو رأته على شاشة السينما أو اختبرته، لم يعدّها لمثل هذا الإعصار المدمر من المشاعر العميقة. فكل تحكّمها بنفسها تبخر ولم يبق في ذهنها سوى أمر واحد وهو ما كانت تنتظره طوال حياتها.. هذا الرجل... وهذه اللحظة... هذا العناق المحموم العنيف.

عندما أطلقها أخيراً، كان العالم قد تغير ولن يعود أبداً كما كان. بقيت في مكانها مرتجفة مقطوعة الأنفاس وقد أصابها الدوار وتملكتها الحيرة، بينما تراجع غراي خطوة إلى الخلف وهو يقول بصوت أجش: «لم أكن أنوي أن يحدث ذلك».

لم تجد شيئاً تقوله، فكل ما أرادته هو أن تعود للارتماء بين ذراعيه.

قال يذكرها: «قلت إنك تريدين شيئاً من الشاي».

أذهلتها رؤيته يتصرف بشكل طبيعي، فيما هي لا تزال تشعر بالصدمة. من المؤكد أنّ ليس بنيته التصرف وكأن شيئاً لم يحدث.

ـ غراي...

نادته بصوت أجش لكنها لم تعرف ماذا تقول. شعرت أنّ عليها أن

تقول شيئاً. فلا يمكن أبداً أن تعود الأمور بينهما إلى ما كانت عليه من قبل

نظر إليها من فوق كتفه، وقال:

ـ نعم.

فقالت متشجعة: «لماذا فعلت هذا؟».

استدار لمواجهتها ببطء وهو يستند براحتيه على المنضدة الرخامية خلفه: «لقد ثار طبعي.. وفقدت تحكمي بنفسي. أعتذر عن ذلك، فأنت لست غبية، وتعلمين ما هي الأمور التي تقف بيننا. أنت تحديتني وأنا تصرفت، وهذا لن يحدث مرة أخرى».

واستقام في وقفته متابعاً: «تصبحين على خير».

ثم خرج من المطبخ وأغلق الباب خلفه بهدوء.

* * *

سمعت لوسيا ساعة الكنيسة تدق أربع دقات متتالية ثم دقة منفردة تشير إلى نصف الساعة.

لعل الناس الذين سكنوا هنا من قبل كانوا يهنأون بالنوم في مثل هذا الوقت.

تساءلت عما إذا كان غراي نائماً. ربما ظل مستيقظاً لفترة، غاضباً من نفسه ومنها أيضاً، لتسببها في فقدان أعصابه. لكنها تشك في أن يتقلب مثلها متململاً، فهو تؤرقه أمور أكثر أهمية مثل تقلّب الأسعار في سوق الأسهم.

كلماته الغامضة ما زالت ترن في أذنيها: «تعلمين ما هي الأمور التي تقف بيننا».

ما الذي عناه بذلك؟ وكيف تقف الأمور بينهما، تبعاً لمنظاره الخاص؟

عندما استيقظت كانت السماء الزرقاء قد حلت محل تلك المرصعة بالنجوم، والجبال تسبح في أشعة الشمس بدلاً من ضوء القمر.

www.liilas.com

وتملكها الذعر لأن الصدمة والاضطراب النفسي اللذين عانت منهما الليلة الماضية أنسياها ربط المنبه. وها أن الساعة قد تجاوزت موعد الفطور بكثير.

بعد ذلك بربع ساعة، وبعد حمام سريع ساعدها على تمالك أعصابها، نزلت إلى الطابق السفلي فوجدت السيدة كلدر وود على مائدة الفطور تقرأ في مجلة. فقالت: «صباح الخير. آسفة لتأخري».

ـ صباح الخير. هذا لا يهم. هل استمتعت بسهرتك؟

ـ نعم، شكراً. استمتعت جداً.

تساءلت لوسيا عما إذا كان غراي قريباً، لكنها لم تحاول أن تكتشف ذلك، بل أخذت برتقالة من السلة وذهبت إلى الحوض لتقشيرها.

قالت روز ماري: «سنكون وحدنا من الآن فصاعداً. فقد سافر غراي».

فاستدارت لوسيا بسرعة: «هل رحل؟»

ـ لقد تلقى اتصالاً من لندن. ثمة حدث خطير وكان عليه أن يرحل فوراً. ولأنه لا يريد أن يتعبنا بتوصيله إلى المطار، طلب سيارة أجرة.

ـ آه... يا للأسف.

وتساءلت لوسيا عما إذا أخبر أمه بالحقيقة أم أنه اخترع تلك الحجة ليتوارى عن الأنظار تخلصاً من الإحراج. لكنه، بحسب معرفتها به، ليس من الأشخاص الذين يهربون من المواقف المحرجة أياً تكن صعوبتها.

ـ هل سيعود؟

ـ قال إنه قد لا يعود. أظن أننا جعلناه... يطمئن أن بإمكاننا التصرف وحدنا. رغم أن وجوده معنا كان مطمئناً. أظنك تعتبرينني ضعيفة وحمقاء للغاية، لكنني أشعر دوماً بالإرتياح البالغ برفقة رجل يواجه الأمور الطارئة خاصة عندما يكون غراي أو أحد أصهرتي. لا تعتبري ذلك عدم ثقة بك، يا عزيزتي، فليس هذا ما أعنيه على الإطلاق، وإنما هي غريزة في

كل، أو معظم، نساء جيلي... ربما لأن الأغلبية لم تكن كفؤة في تدبير أمورها مثل جيلكن.

فقالت لوسيا: «لكن لا أظنك ستخطئين وتفسدين حياتك كما فعلت أنا».

طوال الوقت الذي أمضته في الإغتسال وارتداء ملابسها، كان يسيطر عليها الخوف من مواجهة غراي مرة أخرى، لكنها استغربت رحيله المفاجيء. هذه الحجة ليست مقنعة، وقد كدرتها أكثر.

نهضت روز ماري ثم جاءت لتقف إلى جانبها وتضع ذراعها حول كتفيها: «ظننتك نسيت كل ما عانيته، فقد بدا عليك الكثير من التحسن مؤخراً، يا لوسيا. لكن من الواضح أنك لم تنامي جيداً هذا الصباح، هل كانت أحلامك سيئة...؟ كابوس؟»

ـ نعم، لم أنم جيداً، وهذا هو سبب تأخري. لكن لا تقلقي من أجلي أرجوك. والفضل يعود لك في أنني بدأت بالنسيان فعلاً. فحتى عندما يرتكب المرء خطأ ما من الصعب عليه التعود على فكرة أن ليس بإمكانه أبداً تنظيف سجله تماماً.

وأضافت مندفعة:

ـ أظنك مقتنعة بمبلغ ندمي على ما فعلت، لكنني لا أظن أن غراي مقتنع مثلك.

ـ يا عزيزتي، ما الذي جعلك تظنين ذلك؟ أعرف أنه لم يوافق في البداية على عملنا معاً. لكنني واثقة من أنه غيّر رأيه. ما الذي قاله ليجعلك تظنين العكس؟

ـ لا شيء محدد... لكن الواضح من سلوكه أنه لا يثق بي ولن يثق أبداً.

كانت لوسيا تعلم، وهي تقول هذا، أنها قد تكون مخطئة في إطلاع أمه على هذه المشاعر.

www.liilas.com
المعرّبة من ليلاس

فقالت روز ماري: «أعتقد أن عليك أن تصفي حسابك معه. غراي، في العادة، صريح جداً وهو يحترم الصراحة في الآخرين. أشعر أنك ظلمت بقدر هام من احترامه منذ الحادثة التي وقعت يوم مجيئك. يجب ألاّ تكوني مفرطة الحساسية يا لوسيا وإذا بدا على غراي أحياناً الشرود أو عدم العودة، فهذا، في الغالب يعود إلى شيء يتعلق بعمله ويشغل ذهنه. والآن، تناولي فطورك ولندرس امر خطتنا لهذا النهار. فهل نذهب إلى السوق مرة أخرى؟».

* * *

استغرق الطريق إلى المطار أكثر من ساعة وقد أمضى غراي الوقت بالحديث مع السائق، لكي يمرن لغته الأسبانية، وليؤجل النظر في الأسباب التي جعلته يختلق عذراً للعودة إلى لندن فيما هو يفضل البقاء في اسبانيا.

كان يعلم أن الطائرات معرضة للتأخير المعل، فحجز مقعداً في الدرجة الأولى على الطائرة النظامية، لكن كان عليه الانتظار ساعة قبل بدء الرحلة. ورغم أن لديه ملاحظات عليه تدوينها استعداداً لخطاب سيلقيه إلا أنه وجد صعوبة في التركيز. ما حدث الليلة الماضية لم يبارح مخيلته بعد، ولم يستطع التخلص من ذكرى احتضانه للوسيا، وكم صعب عليه التوقف عن معانقتها.

تساءل عن حقيقة شعورها حين نزلت من غرفتها ووجدت أنه رحل. ربما شعرت بالارتياح! أولاً المواجهة على مائدة الفطور كانت لتتسبب بإحراجهما معاً، بعد استجاباتها المتلهفة، وانجذابها الجسدي إليه. لقد فضحها جسدها وليس عقلها، فكيف بمقدورها أن تشعر تجاهه باللهفة والانفعال فيما شهادته في المحكمة هي التي وضعتها خلف القضبان؟

إن تجاوبها معه لا يثبت شيئاً سوى أنها استعادت حيويتها الطبيعية

وبالتالي حاجتها كأي امرأة أخرى في سنها من سخرية القدر أن تظنه قد أطلق العنان لمشاعره وأراد إقامة علاقة عابرة معها فيما الأمر لم يكن كذلك. لأنه ومنذ فترة، وجد أن العلاقات العابرة لم تعد ترضيه، فأصبح يبحث عن علاقة ثابتة مع رفيقة دائمة. ولكن عليه أولاً أن يجد مخرجاً للمأزق الذي غرقت فيه حياته. ولم يكن ثمة مخرج...

* * *

اتصل جوليان في الصباح الذي تلا رحيل غراي، وسأل إن كانتا ترغبان بالخروج في نزهة إلى أعماق الريف.

ردت روز ماري على مكالمته وقبلت الدعوة ثم خاطبت لوسيا قائلة: «يقول إنها قرية رائعة للرسم».

كانت الرحلة رائعة حقاً. وفي الساعة التي سبقت الغداء كانت روز ماري ولوسيا قد خطتا صورة رائعة لنافورة في الساحة الرئيسية تمثل طائراً. وبينما كانت السيدة هندرسن تتمشى في الأنحاء وهي تتثرثر مع أهالي القرية بلغتهم المحلية، كان جوليان يلتقط صوراً فوتوغرافية.

بعد أن تناولوا الغداء بجانب النهر، قالت أليس: «أحتاج قيلولة لنصف ساعة».

فقالت روز ماري: «أظنني سآتي معك. فما أكلناه يسبب النعاس».

وابتسمت لجوليان الذي كان قد أحضر الطعام ونصب المظلة. فقال: «ستتمشى أنا ولوسيا على ضفاف النهر. لا أظنك تريدين أخذ قيلولة، أليس كذلك يا لوسيا؟».

هزت رأسها نفياً وهي تنفض عن تنورتها فتات الخبز ثم وقفت.

قال جوليان: «أتساءل عما يفعله الراعي، طوال النهار. لو كنت مكانه لتملكني الضجر. ماذا عنك أنت؟».

ـ هناك أشياء أكثر مدعاة للضجر.

ـ مثل ماذا؟

ـ آه، أن تلتصق بمكتب طوال النهار تطبع على الآلة الكاتبة.

لم تشأ إخباره عن أسوأ ما يسبب الضجر وهو ساعات لا نهاية لها تمضيها حبيسة من دون ما يكفي من الكتب لتملأ وقتها.

بدا واضحاً أن ذلك لم يكن الموضوع الذي يريد جوليان الخوض فيه. فغيَّره بقوله: «إذن عاد كلبك الحارس إلى لندن فتُركت حرة في تناول العشاء معي مرة أخرى الليلة».

ـ شكراً، لكنني لا أستطيع ترك روز ماري وحدها.

ـ لن تكون وحدها. هناك فيلم انكليزي في سينما «كالب» يناسب سيدتينا معاً. سننزلهما هناك، ثم نعود لنأخذهما فيما بعد. هناك مطعم جيد يمكنهما أن تتناولا فيه العشاء قبل الفيلم.

لم تستطع لوسيا كتم ضحكها لأنه خطط لكل شيء، وتمنت لو تشعر بمثل هذه الراحة مع غراي.

وفجأة، أمسك بيديها وأدارها إليه قائلاً: «عندما تضحكين بهذا الشكل، أكاد أقع في غرامك. ولكن، من الأفضل ألاّ أفعل هذا، فعزيزتي تحدثني بأنك تحبينني ولكن كصديق فقط. أليس كذلك؟».

ـ جوليان. لقد تعارفنا للتو، فكيف يمكننا، في هذه المرحلة، أن نكون أكثر من صديقين؟

ـ كثير من الناس يتقاربون بعد وقت أقل من الذي أمضيناه سوية.

قال هذا وهو يلامس راحتيها بإبهامه.

هذه اللمسة تركت أثرها في نفسها، فقد أعادتها فوراً إلى ذكرى الأحاسيس التي أثارها فيها غراي منذ يومين.

سحبت يديها وهي تقول: «لا... من فضلك. فلندع علاقتنا عند حدود الصداقة».

ـ لا بأس، إذا كنت مصرة. من سوء الحظ أنني لم أتعرف إليك قبله. أنت تحبينه، أليس كذلك؟

حاولت أن تنكر، ولكن فجأة، تغلبت عليها حاجتها إلى البوح بما في نفسها لشخص ما، فقالت: «نعم، لكنني أعرف أن هذا لن ينجح أبداً».

ـ ما الذي يجعلك تظنين ذلك؟

ـ هنالك أسباب قاهرة تمنع غراي من مبادلتي الحب.

ـ هناك حكمة علمتني إياها مربيتي عندما كنت صبياً: (لا شيء مستحيل إذا شئت حقاً أن تفعله). وهذا صحيح، فالأشياء القاهرة قليلة جداً. ما هو ذلك الجدار بينكما الذي لا يمكنكما تسلقه؟

ـ إنها قصة طويلة ومعقدة يمكنها أن تبعدك عني أنت أيضاً، وأنا أفضل الاحتفاظ بحسن ظنك بي.

قالت ذلك بالرغم من رغبتها في إخباره، فقد كانت بحاجة إلى أن تخبر شخصاً ما. وحين تنتهي هذه الرحلة من غير المحتمل أن يتقابلا ثانية.

ـ جربيني، ربما سأجد طريقة لهدم هذا الجدار على الأقل. يمكنني إبداء رأي كرجل وهو عادة ما يختلف كثيراً عن رأي المرأة.

فتنهدت لوسيا قائلة: «حسناً، سأجازف. منذ ثلاثة أشهر كنت في السجن بسبب جريمة احتيال».

وحين ارتفع حاجبا جوليان دهشة، تابعت تقول: «وغراي كان أحد الأشخاص الذين احتلت عليهم».

وشرحت باختصار كل الظروف التي قادتها إلى إسبانيا بصفتها مرافقة للسيدة كلدروود في الرسم.

وتابعت وهي ترى الذهول البالغ على وجه جوليان: «والآن يمكنك أن تدرك الصعوبة في اجتياز هذا الحاجز بالذات».

وتنهدت. سارا دقائق عدة صامتين. كان جوليان ينظر إلى الأرض وهو يعضّ شفته العليا، وهذا تصرف لم ترَه عليه من قبل ربما لأنه لم يمر بوضع لا يعرف تماماً كيف يعالجه. وأخيراً، قال: «إذا كان غراي رجلاً

عادلاً، فعليه أن يدرك أن أكثر الناس يفعلون أشياء عكس طبيعتهم إذا تعرضوا لضغط الظروف. خالفت ضميرك لأن شخصاً تحبينه كان بحاجة إلى دواء باهظ الثمن وعليك دفع ثمنه. ما فعلته كان لا أخلاقياً تماماً، ولكن إذا لم يستطع غراي أن يصفح عنك من أعماق قلبه، إذن، برأيي، الأفضل أن تتركيه. ولكن هل تحدثت معه بهذا الشأن؟».

فقالت: «لا فائدة من ذلك، فكل الظروف المخففة للجرم ذكرها محامي الدفاع في المحكمة. لم يكن غراي في المحكمة عندما قدم المحامي التماساً بطلب الحكم مع وقف التنفيذ. لكنني واثقة من أنه قرأ ما كتبته الصحف».

ـ لكنه لم يكن يعرفك حينذاك، وهو يعرفك الآن. لو كنت مكانك لصفيت حسابي معه... اطلبي منه أن يسامحك. لن يقاوم هذا الالتماس المباشر إلا إذا كان ذا قلب في غاية القسوة. وما أدراك أنه لا ينتظر منك فعل هذا؟ أنت لن تخسري شيئاً.

جاء دور لوسيا لتعض شفتها. لقد بسّط جوليان الأمور، لكنه يحكم على غراي بمقاييسه هو، الأكثر تسامحاً. فالرجلان يختلفان في نواح عديدة. غراي أشدّ صلابة وخشونة وشخصيته أكثر سيطرة وقيادية، بينما جوليان لين العريكة، سهل القيادة. قالت: «سأخسر كبريائي فقط، كما أظن، إذا ما قال لي إنه سيظل يحتقرني على الدوام».

ـ لا أظنه سيفعل ذلك. لو كان يحتقرك لما بدا غيوراً حين طلبت منك موعداً.

فقالت: «ربما لأنه اعتبر أنك لا تعرف حقيقتي، وربما كان يفكر في ما إذا عليه إبلاغك».

ـ لا أظنه يفكر في مصلحتي أنا، فالذبذبات التي صدرت عنه أشبه بإشارات التهديد التي يرسلها الذكر المسيطر على القطيع عندما يظهر غريب وينظر بشهوة إلى إناثه.

وأضاف جوليان ضاحكاً: «أظن أن سوء حظك هز ثقتك بنفسك. أنت جذابة للغاية. أتظنينه لا يرى ذلك؟».

فقالت وهي تتذكر ما حدث في المطبخ: «قد تنجذب إلى شخص ما دون أن تحبه».

ـ هذا صحيح، لكنك تغفلين أمراً هاماً. كيف يتكهّن غراي بحقيقة شعورك نحوه من تصرفاتك؟ أليس معذوراً إن ظنّك غير مبالية به؟

ـ مرت مناسبات أظهرت فيها وديّ له.

قالت هذا وهي تشيح بوجهها لئلا يرى حمرة الخجل.

وتذكرت تجاوبها الغريب مع عناق غراي، فهي لم تقاوم ولو بشكل رمزي، فما أن لمسها حتى ذابت دفاعاتها كالثلج في الشمس.

ـ ربما هكذا ظننت، ولكن لعله لم يفهم الإشارة، كما يقال. في المرة التالية، حاولي أن تكوني دافئة منفتحة معه كما أنت معي. ما الذي يجذبك إليه ويجعلك تشتعلين بينما أبذل جهدي لاجتذابك فتبقين باردة؟

قالت مفكرة: «لا أدري. أظنني عندما رأيته في المحكمة، تأثرت به كثيراً، رغم أن شهادته هي التي أدت للحكم عليّ».

ـ يا لك من مسكينة. أكره أن أفكر فيك مسجونة مع مجرمين حقيقيين. كان عليهم أن يضعوك في أحد السجون المفتوحة في انكلترا.

ـ اعتبرت مجرمة (حقيقية)... عذري أقل من بعض الذين لم تسمح لهم خلفياتهم بأن يصبحوا شرفاء، ملتزمين بالقانون. وهذا ما فتح عيني على الحقيقة الفظيعة التي يعيشها بعض الناس.

فقال بسرعة: «أنا واثق من أنك لا ترغبين في الحديث عن ذلك أو حتى التفكير فيه. من الأفضل أن نعود الآن وإلا ستظن البطتان العجوزان أننا تهنا».

في تلك الليلة، وهو يوصل روز ماري ولوسيا الى المنزل، أبلغهما أنه سيعود في الصباح إلى برشلونة.

وقالت روز ماري وهما تدخلان البيت: «إنه شاب ساحر، لكنه (زير نساء) عابث لا يرجى إصلاحه. هذا ما قالته لي مربيته ألبس. أسرته تريده أن يتزوج ويستقر، لكنه يحب العبث. ولا شك أن يرشلونه تغص بالفتيات الجميلات».

فقالت لوسيا بذهن شارد: «هذا ما أظنه»، وراحت تفكر في نصيحة جوليان وتتساءل عما إذا كانت ستجرؤ على تنفيذها.

سألتها روز ماري: «هل أنت خائبة الأمل لأنه لم يمكث هنا مدة أطول؟».

ـ لا... لقد شعرت نحوه بالمودة، لكنني لم أقع في غرامه.

تكلمت لوسيا بمرح، متسائلة عما ستفعله روز ماري إذا عرفت أن ابنها هو من سرق قلب لوسيا.

* * *

مرت أيام عدة سارة. فعندما كانتا ترسمان في القرية، كان الناس يتفرجون على ما ترسمانه ويتبادلون ملاحظات غير مفهومة. كانت روز ماري تجد في هذا أمراً لا بد منه بينما تعلمت لوسيا تجاهله منذ وقت طويل، وبدا لها أن ضياع موهبة روز ماري لبقائها سنوات طويلة من دون استخدام خسارة كبيرة.

لن تفهم كيف أمكن لروز ماري أن تهمل موهبتها الفذة؟ وكيف يمكن لزوج محبّ أن يطلب من زوجته تجاهل تلك الموهبة؟

وهل سيفعل غراي مثل أبيه فيطلب من زوجته أن تركز حياتها عليه وعلى أولادهما؟ أيمكن أن تتزوج رجلاً كهذا حتى لو كانت تحبه؟

علمتها الحياة درساً من ملاحظاتها وليس من خبرتها الشخصية وهو أن الناس لا يغيرون طباعهم الأساسية، رغم أن كثيرات من النساء يعتقدن أن بإمكانهن تغيير حياة الرجال. إلا أنها لم تر أو تسمع قط عن امرأة استطاعت ذلك، وهي لن تقترف أبداً تلك الغلطة.

كان غراي يتصل بأمه كل مساء، ولكن ليس في وقت محدد. وذات مساء اتصل باكراً، وكانت أمه في الحمام عقب وصولهما من الرسم فردت لوسيا.

ـ غراي هنا. كيف حالك؟

لم تعكس لهجته ما حدث بينهما ليلة سفره.

ـ نحن بخير. أمك في الحمام. هل أطلب منها أن تتصل بك، أم ستطلبها فيما بعد؟

ـ سأكون في الخارج إلى ما بعد موعد نومكما، سنتحدث غداً. ماذا فعلتما اليوم؟

ـ ذهبنا إلى معرض للفنون، ثم تابعنا طريقنا إلى قرية ذكرتها لنا ألبس هندرسن، فيها بيوت قديمة... تديرها سيدات مسنات، ضئيلات الحجم، لكن أكثر عملهن هو نشر الأقاويل.

عدم وجوده معها في الغرفة جعها تسترسل في الكلام بسهولة وتظهر الارتياح. وفي الوقت نفسه نبهها الحديث معه إلى ما في صوته من جاذبية أيقظت فيها بعض المشاعر التي تملكتها حين عانقها.

فقال: «يبدو أن صوراً معينة ستنتج عن ذلك».

علمت أنه يعني الرسوم التي تصور مشاهد منزلية أو أحداث من الحياة اليومية.

ـ لقد خططنا الكثير على دفاتر التخطيط لكي نعيد رسمها عندما نعود إلى البيت.

استعملت كلمة البيت من دون وعي، وتساءلت عما إذا كان ذلك سيضايقه.

ـ ماذا ستفعلان غداً؟

ـ سنذهب لنتفرج على «القصر» ثم نتناول الغداء في مطعم.

ساد صمت قصير قبل أن يسألها: «هل ما زال جوليان هناك؟».

www.liilas.com

- لقد عاد إلى برشلونة.

- أخبري ماما أنني سأتصل بها غداً. تصبحين على خير يا لوسيا.

ردت تحيته ووضعت السماعة. ربما رأى سخافة استمراره في أن يمضيا دقائق في حديث ودي.

كان سؤاله عن جوليان مشجعاً لها وهي تراه مدفوعاً بالغيرة، لكنها لم تستطع أن تصدق ذلك تماماً.

تمنت لو سجلت محادثتها... لأعادت سماع جملته (تصبحين على خير... يا لوسيا)... لكي تسمع مرة إثر مرة صوته وهو يلفظ اسمها.

ماذا ستشعر لو سمعته يقول (حبيبتي لوسيا)؟

ربما لن تعرف ذلك أبداً، لكنها لا تستطيع منع نفسها من التساؤل الحالم.

* * *

في غرفة نومه في لندن، كان غراي يتهيأ للذهاب إلى حفل عشاء رسمي عليه أن يلقي في بدايته خطاباً، وبأصابع خبيرة عقد ربطة عنق حريرية سوداء ليكمل بها هندامه. كان قد توقف منذ وقت طويل عن الشعور بالتوتر في مثل هذه المناسبات، لذا، وبعد أن حفظ ما عليه قوله صار بإمكانه أن يعود بمخيلته إلى غرفة الجلوس في إسبانيا، وإلى الفتاة التي لم تبارح فكره منذ ليلته الأخيرة هناك.

بعد أن عانقها، أدرك أن الوضع بينهما لم يعد كما كان، فرائحة جسدها وشعوره الطاغي بها لن يدعاه بسلام بعد الآن. شرع بتثبيت أزرار كمي القميص البلاتينية التي ورثها عن أبيه، وهو ينظر إلى نفسه في المرآة عابساً. وراح يحدث نفسه بغضب بأنه أحمق، فحياته معقدة بما يكفي لئلا يضيف إليها ورطة أخرى. الوضع الآخر لا حل له، أما هذا فيمكن حله بأسهل الطرق. سيغويها أولاً ثم يتخلص منها بعد ذلك.

لكنه لم يكن واثقاً تماماً من أن في استطاعته فعل ذلك. لقد غلبتها

المفاجأة في المرة الماضية فلم تقاوم، بل تجاوبت معه بحماسة لم يكن يتوقعها. لكن الإغواء، على كل حال، هو شيء آخر، فقد تقاومه بشدة، وهذا ما يجعل العلاقة بينهما أصعب مما هي عليه الآن.

كان من الأفضل لو لم يلتقيا قط، فلن تكون النتيجة حسنة. ولكن ما دام الأمر من دون حل، سيبقى الوضع بينهما مصدراً للانزعاج. إنها تحتل ذهنه معظم الوقت... أو أكثر، فتفقده بذلك ميزته الكبرى وهي قدرته على التركيز في الأمور التي بين يديه من دون غيرها. لقد أصبحت لوسيا شغله الشاغل طوال الوقت وفي الليل كما في النهار.

غادر الغرفة ثائراً، وبعدها بدقائق، كان في طريقه ليستقل سيارة أجرة، كانت بانتظاره لتوصله إلى الفندق حيث يقام العشاء.

* * *

بعد ذلك بثلاث ساعات، اتصلت لوسيا من المستشفى برقم هاتف غراي الخلوي. ولما لم تستطع مكالمته، تركت له رسالة تقول: «غراي، أنا لوسيا، أمك مريضة وأظنها أصيبت بذبحة قلبية خفيفة. لا يمكنهم التأكد إلا بعد إجراء المزيد من الفحوصات. إنها في المستشفى في «دينيا» وهي تلقى عناية فائقة. لقد نصحوني بالعودة إلى المنزل ثم الحضور إلى المستشفى في الصباح. رقم تليفون المستشفى هو...» وقرأت الرقم الذي تحمله بيدها أكثر من مرة. كما تركت رسالة على المجيب الآلي لدى جيني تقول: «ألحت عليّ روز ماري بشدة كيلا أقلقك، لكنني شعرت بأن عليك أن تعلمي. إتصلي بي رجاءً، حال عودتك وقراءة هذه الرسالة».

* * *

١٢ ـ العاصفة . . .

في سيارة الأجرة المتجهة به إلى البيت، فتح غراي هاتفه الخليوي والتقط أربع رسائل. الأخيرة كانت من لوسيا، حيث عكس صوتها هدوءاً وضبطاً للنفس كسكرتيرة عاقلة متوسطة السن تعلم أنها لا يمكن أن تضطرب مهما كانت الظروف.

ومع ذلك شعر بقلقها العميق على أمه. اضطرت لوسيا إلى مواجهة موقف يذكرها بمرض أبيها وموته، لم تكن مستعدة بعد لمواجهة أزمة أخرى، إنها بحاجة إلى المزيد من الوقت للتغلب على ما عانته قبل أن تلقي الحياة على كاهلها بمحنة أخرى.

مال إلى الإمام مخاطباً السائق: «ثمة طارىء. علي الذهاب إلى مطار «هيثرو» أو «غاتويك»، أو ربما «ستانستد». سأحتاج إلى عشر دقائق لأغير ملابسي وأحزم أمتعتي. هل بمكنك أن تأخذني إلى أي مطار يمكنني أن استقل طائرة منه؟».

ـ نعم، لا بأس يا سيدي.

وشرع غراي ينظم أفكاره بخصوص هذه العودة غير المتوقعة إلى اسبانيا.

* * *

عندما رن الهاتف في غرفة الجلوس، لم تكن لوسيا نائمة بعد. قفزت من سريرها وأسرعت تهبط السلم حافية، قد يكون غراي، أو ربما

المستشفى. ودعت الله ألا تكون المستشفى وتمنت لو أنها رفضت العودة إلى البيت رغم إلحاحهم بأن وجودها غير ضروري.

ـ أنا غراي. هل أيقظتك؟

بدا صوته قريباً وكأنه آتٍ من المطبخ، فأجابت: «لا. فما زلت مستيقظة».

ـ أنا في الطريق إليكم. أنا في مطار «غاتويك» مع مجموعة من المسافرين، طائرتهم تأخرت بسبب (عطل فني). لحسن الحظ أن هناك مقعدين شاغرين. سأحجز في فندق وأنام بضع ساعات قبل أن أستقل سيارة أجرة إلى القرية لنذهب معاً إلى المستشفى في «دينبا». سأكون عندك حوالى الساعة الثامنة والنصف.

فقالت وهي تتصور المشهد من حوله: «مسكين أنت، ومساكين هم المسافرون».

فقال بخفاء: «نعم، ليسوا سعداء كما يبدو. بالمناسبة، اتصلت بالمستشفى وأخبرتهم بأنني قادم. لكنني تركت لهم تعليمات صارمة بألا يخبروا ماما، فقد يثير ذلك اضطرابها. إنها، ككثيرات من جيلها، تخشى أن تكون مصدر إزعاج. . . وتفضل أن تتألم بصمت على أن تسبب أي إزعاج للآخرين. هذا جنون ولكنها كذلك».

ـ قد تحتج أمك حين تراك، ولكنني اعترف بأنني مسرورة جداً لقدومك. وهذا لا يعني أن ليس بإمكاني مواجهة الأمر، ففي المستشفى أناس يتكلمون الانكليزية بطلاقة، ولكن المريض بحاجة إلى شخص عزيز عليه ليكون قريباً منه.

وأضافت وهي تتكهن بمدى قلقه: «تبعاً لرأي بعض الأجانب الذين كانوا في غرفة الإنتظار في المستشفى، العلاج في مستشفيات اسبانيا جيد جداً حتى خارج المدن الكبرى، فلا تقلق على حالتها مهما كانت».

فقال: «سأتأكد من ذلك. نامي الآن يا لوسيا، وأراك قريباً».

وأقفل الخط قبل أن تجيب كأنما هذه هي رغبته.

* * *

حملت لوسيا صينية فطورها، ثم خرجت لتناوله تحت الشمس وعلى الدرجات المؤدية إلى الفناء. بالرغم من أنها لم تنم جيداً، بسبب قلقها على روز ماري، فقد تملكها الشعور نفسه الذي كان يراودها قبل حلول عيد ميلادها، وهي طفلة، وهو التوقع والإثارة.

كانت تعرف السبب، فغراي قادم، بعد ساعة أو أقل. وسيتقابلان وجهاً لوجه لأول مرة منذ أن عانقها.

كم سيكون جميلاً لو أستطاعت أن تحييه بهدوء ومحبة كما يفعل الأسبان مع الأصدقاء والأقارب.

بعد أن أنهى المكالمة الليلة الماضية، استلقت في فراشها وهي تتساءل عما يدعوه لاختيار فندق يقضي فيه ما تبقى من الليل بعد هبوط طائرته ولديه غرفة نوم هنا؟

التفسير الوحيد الذي توصلت إليه هو أنه ربما فكر أن من غير اللائق أن يبيتا منفردين تحت سقف واحد.

وبدا لها أن في هذا الرأي شيء من الرجعية بالنسبة إلى شخص مثله، ولكن لعله يراعي رأي أمه في مثل هذه الأمور.

ورغم أن روز ماري منفتحة في أمور كثيرة، إلا أنها لن توافق أبداً على قضاء شخصين عازبين الليل وحدهما تحت سقف واحد. فأكثر من مرة اعترفت بأنها تتمسك بالآراء المتحفظة بالنسبة إلى العلاقات. لقد أحبت روز ماري زوجها، فقد وفر لها كل أسباب الراحة. وأنجبا أربعة أولاد في أحسن حال. وإذا كان من سوء حظها أنها لم تشتهر كفنانة فهذا لا يعتبر في الحقيقة ثمناً غالياً مقابل حصولها على حياة أفضل بكثير مما يتمناه معظم الناس.

كانت لوسيا تقف عند نافذة المطبخ حين وقفت سيارة الاجرة في

الخارج ونزل غراي من بابها الخلفي. وإذ رآها، رفع لها يده قبل أن ينحني ليتحدث إلى السائق.

بينما كان يدفع الأجرة، تقدمت لتفتح له الباب الخارجي.

حيتها الجارة بالإسبانية: «مرحباً. نهارك سعيد».

فابتسمت لوسيا وردت تحيتها باللغة نفسها وهي تشعر بالإثارة لأنها ستصافح غراي بعد قليل. ولكن عندما التفتت إليه، رأته يحمل حقيبة صغيرة في يد، وكمبيوتر في اليد الثانية. كان واضحاً أن التحية لن يتخللها ضغط الأيدي.

- مرحباً. هل أنت مرهق؟ هل كانت الرحلة كابوساً من الأولاد المتمردين والآباء المنزعجين؟

طرحت عليه هذا السؤال وهي تتراجع عن الباب ليدخل، فقال: «لقد أشفقت عليّ المضيفة فوجدت لي مقعداً بعيداً عن المركز الرئيسي لمستشفى المجانين ذاك».

وفكرت لوسيا في أن المضيفة كانت تأمل ربما أن يسألها عن رقم هاتفها. كانت تسمع عن رجال الأعمال الظرفاء الذين يسافرون وحيدين ويشعرون بالوحدة. ومن المحتمل أن يكون من أولئك الذين يمضون عطلاتهم بالنوم على الشاطىء.

سألته: «هل تناولت فطوراً؟».

- نعم، ولا أريد سوى فنجان قهوة قبل أن نذهب. سأضع حاجياتي هذه في غرفتي أولاً.

وحين عاد، كانت القهوة جاهزة فسألته وهي تحمل الصينية: «هل نتناول القهوة في الحديقة؟».

- فكرة جيدة.

أخذ الصينية من يدها ونظر إليها متفحصاً: «كم ساعة نمت؟».

هل قصد بسؤاله أنها تبدو منهكة.

www.liilas.com

فأجابته وهي تتجه نحو الباب لتفتحه له: «أكثر مما نمت أنت، كما أظن».

ـ بحسب الأرصاد الجوية في الليلة الماضية، ينهمر المطر الآن في لندن.

قال غراي هذا بعد أن وضع الصينية على المنضدة في الحديقة ونظر إلى السماء، حيث الغيوم مجرد سحب قليلة أشبه بذيل الحصان. جلس على مقعد خشبي وقال: «والآن، أخبريني بكل ما حدث».

○○○

في المستشفى، عندما أذن لهما بدخول غرفة السيدة كلدروود، وقفت لوسيا بعيداً، وقالت: «أنا واثقة من أن أمك تحب أن تكونا على انفراد، سأراها فيما بعد».

فقال بحزم: «كلام فارغ. إنها ترغب في رؤيتنا معاً».

وأمسك بيدها وجرها نحو المصعد.

لم تكن روز ماري في سريرها، بل جالسة على كرسي بجانب النافذة. وعندما رأته هتفت وقد أشرق وجهها: «غراي!».

تقدم نحوها وعانقها، قائلاً: «لقد قررت أخذ عطلة أخرى».

نظرت روز ماري إلى لوسيا بارتياب وسألتها: «أنت لم ترسلي بطلبه، أليس كذلك؟».

فقال غراي: «لا. إنها لم ترسل لي خبراً. لكنها تصرفت بلياقة بالغة إذ تركت لي رسالة في الهاتف تخبرني بما حدث وأنك بين أيدٍ أمينة. لو لم تفعل لغضبتُ منها جداً. على كل حال، كنت أخطط للعودة».

بحجة ما، تركتهما لوسيا معاً وخرجت لتعود بعد حوالى ربع ساعة. وجدت معهما طبيباً لم تره من قبل، وكان غراي يتحدث إليه بالأسبانية.

قدّمها إلى الطبيب ثم عاد الرجلان إلى حديثهما، بينما أشارت روز ماري إلى لوسيا ثم سألتها: «هل كنت خائفة وحدك الليلة الماضية في

البيت؟».

ـ ربما كنت لأخاف لو انني في منزل ريفي معزول وليس في بيت قروي.

فاجأتها روز ماري بقولها: «الليلة سيكون غراي معك. في زمني، كان هذا كفيلاً بأن ترتفع له الحواجب دهشة. أعني رجلاً وامرأة وحدهما في بيت. ولكن في هذه الأيام كل شيء جائز. إذا لم تكوني مرتاحة لوجوده هناك في غيابي، فعليك أن تقولي ليذهب إلى الفندق».

فقالت لوسيا: «أنا مسرورة جداً لوجوده هناك إلا إذا كان يفضل أن يكون قرب المستشفى. وكما تقولين، كثير من الرجال والنساء يتشاركون البيوت هذه الأيام».

قالت روز ماري: «على أيّ حال، أرجو أن يسمحوا لي غداً بالعودة إلى البيت. سيقومون بالعديد من الفحوص المخبرية اليوم وأنا أشعر بتحسن بالغ، لقد بدأت أشك بأني محتالة».

بعد أن ألحت عليهما بالخروج للاستمتاع بالشمس وعدم البقاء معها، أخذوها على كرسي متحرك لإجراء اختبارات. وعندما ابتعدت، سأل غراي لوسيا: «ما رأيك في مظهرها؟».

فضلت لوسيا أن تكون صادقة معه، فقالت: «روز ماري تدعي بأنها في صحة جيدة، أشك بذلك. كيف تراها أنت؟».

فهز رأسه: «أرجو أن يكون ما حدث تحذيراً، يمكّنهم لاحقاً من تفادي ما هو أخطر. هيا بنا ننفّذ ما طلبته منا ونبحث عن مقهى مشمس».

أمضيا بقية النهار وهما يتجولان بين أروقة المستشفى ومقاهي المدينة.

وعند العصر، قالت السيدة كلدروود إنها متعبة وستغفو قليلاً لأنها لم تنم جيداً الليلة الماضية.

ـ أراكما غداً، أيها العزيزين.

ومدت ذراعيها تعانق ابنها، وبعد أن قبلها، عانقت لوسيا. عند وصولهما إلى موقف السيارات، سألته لوسيا: «هل أقود السيارة عنك؟ يبدو عليك الإرهاق. يمكنك أن تغفو أثناء العودة».

فقال وهو يناولها المفاتيح: «هذا ما سأفعله على ما أظن».

وقبل أن يبتعدا كثيراً أمال رأسه على النافذة وغط في النوم مبدياً جانباً من فكه الصلب ووجنته العالية، النظرات الخاطفة التي رمقته بها أثناء القيادة طبعت في ذهنها شكل أهدابه الكثيفة.

وبينما كانت تلتف حول المنعطفات بحذر وتتجنب الاهتزازات العنيفة كيلا تزعجه، راحت تفكر في ما عساها تطهو لعشائه.

وحين وصلا إلى البيت، كان لا يزال مستغرقاً في النوم، فهزته من كتفه ليستيقظ.

ثمتم محتجاً وهو يدير رأسه نحوها، ثم فتح عينيه ببطء.

ـ إستيقظ. لقد وصلنا.

قالت هذا بهدوء، وقد رأت أن استيقاظه بالكامل يستغرق وقتاً. مضت لحظات وهو ينظر إليها بحيرة وكأنه لا يتذكر من تكون ثم عاد إليه وعيه، فالتمعت عيناه فجأة. ولكن البريق لا يماثل نظراته الخارقة التي بانت في عينيه قبل أن يعانقها.

أخذت لوسيا نفساً عميقاً وهي لا تدري إن كان سيعانقها أم لا. وإذا ببعض الأولاد يمرون بهما وهم يتحدثون اللغة المحلية وهي أكثر صعوبة في الفهم من الأسبانية، كما أن أصواتهم كانت عالية متنافرة.

عندما ابتعدوا، كان غراي قد استيقظ تماماً وأخذ يفك حزام السيارة، لقد مرت اللحظة المشحونة بسلام.

بعد أن دخلا ردهة المنزل، نظر إلى ساعته وقال: «لماذا لا ننام، نحن الاثنين، حوالي ساعة، ثم نخرج للعشاء؟».

ـ فكرة ممتازة.

كانت قد بدأت تسترخي وبدا التفكير في الاستلقاء وإغماض عينيها مغرياً.

ـ لا بأس... فلنفعل ذلك. هل في ساعتك منبه؟

فأومأ إيجاباً: «سأربطها على السابعة والنصف. ثم استحم وأكون مستعداً للخروج حوالى الثامنة... إذا كان هذا يناسبك».

ـ يناسبني تماماً. إلى اللقاء.

* * *

في الثامنة إلا دقيقة نزلت إلى الطابق السفلي فوجدته يفتح زجاجة شراب من الثلاجة. قال: «هذا لفتح الشهية قبل أن نخرج، هل نمت جيداً؟».

ـ تماماً، وأنت؟

ـ عظيم. ثوبك هذا يعجبني.

أجفلت لهذه المجاملة، لكنها حاولت ألاّ تظهر ذلك فقالت: «شكراً».

استنتجت أنه قرر أن يعاملها بلطف، على الأقل ما دامت أمه في المستشفى.

ناولها كأساً، قائلاً: «فلنتناول الشراب في الخارج. هل لديك فكرة إلى أين ستذهب لتناول الطعام؟».

ـ هنالك مطعم في آخر الشارع المقابل للكنيسة. يمكننا الوصول إليه سيراً.

ـ في هذه الحالة، خذي معك معطفاً أو ما أشبه، فقد يبرد الجوّ فيما بعد.

* * *

أثناء العشاء، قالت: «غراي، أنا لم اعتذر عما فعلته. أريدك أن تعلم أنني حقاً آسفة للغاية».

www.liilas.com

وضع الشوكة والسكين من يده ثم اتكأ إلى الخلف، وألقى عليها نظرة لم تفهمها: «ليس عليك إذلال نفسك، يا لوسيا. فقد سبق ودفعت ثمن غلطتك».

- ظننتك تشعر أن قصاصي ليس كافياً.

- ربما ظننت هذا في البداية، فلم أكن أعرفك حينذاك. أما الآن فأظن أن الحكم كان قاسياً على فتاة مثلك.

فقالت بدهشة: «أحقاً تظن ذلك؟».

كان غراي ينظر إليها تلك النظرة الغامضة المصممة، فقال بابتسامة: «أثناء محاكمتك كنت من الغضب بحيث لم أفكر في القضية بهدوء. أظهرني عملك كالأحمق وأنت تعرفين كم هي حساسة كرامة الرجل».

فردّت موافقة: «كرامة بعض الرجال ولكنني لا أظن أن كرامتك من الضعف بحيث تكون هدفاً لسخرية أو تجريح، وبالتالي بحاجة إلى مراعاة. كان لك الحق في أن تغضب، ولكن... حسناً، لا فائدة من خلق الأعذار لنفسي. كنت، في أعماقي، أشعر دائماً أني أرتكب خطأ. لكنني أبعدت ذهني عنه».

- أخبريني إذاً عمّا لا أعرفه عنك. أنا واثق من أنك، قبل أن يحدث هذا، لم تقترفي أي خداع في حياتك.

- لا. لا أظنني فعلت. لقد تربيت على الصدق والأمانة. إذا وجدت محفظة في الشارع كنت آخذها إلى الشرطة. لم أكن أكذب إلا مراعاة لإحساس شخص ما، ولكن عندما وقعت في التجربة... وأصبحت أمانتي على المحك... سقطت.

- محاميك قال إنك احتجت إلى المال لأجل أبيك. حينذاك ظننت أن هذه قصة ملفّقة.

قالت بصوت منخفض: «بل كانت صحيحة. قال لي طبيبه إن الدواء الذي يحتاجه موجود لكنه غالي الثمن. ومن الممكن إعطاؤه للمريض

مجاناً في بعض أنحاء البلاد، لكن ليس في المكان الذي كنا نعيش فيه. الطريقة الوحيدة للحصول عليه هي أن يشتريه المريض على نفقته الخاصة. فكرْتُ في أن الأمر يستحق التجربة وهكذا مررْتُ اللوحة التي كنت أرسمها بصفتها أصلية».

- لو كنت مكانك لفعلت الشيء نفسه. لو لم يكن لدي مال واحتاجت أمي أو اخواتي إلى علاج غالي الثمن، لسلبت مصرفاً إذا اقتضى الأمر. اليأس يقود إلى التهور. وضعك ذاك كان لا يطاق. ويجب أن يتوفر لكل مريض العلاج المناسب مهما تكلفت الدولة.

فقالت: «كان بإمكاني رهن البيت. ولكن من الصعب القيام بذلك من دون علم أبي وكنت أعرف أنه لن يوافق. فقد كان مستسلماً للموت وهو شديد العناد، وقد مات في النهاية طبعاً... كل ما فعلته لم ينفع بشيء».

عاد النادل يسألهما إذا ما انتهيا. كانت لوسيا قد تناولت طعامها المؤلف من السمك والخضار لكنها تركت البطاطا المقلية التي يبدو أنها تلازم الطعام دائماً.

أجابته لوسيا: «نعم، شكراً».

وأشار غراي إليه أنه انتهى هو أيضاً.

وقبل أن يأخذ النادل الأطباق، قدم إليهما قائمة بالحلويات التي ترجمها غراي لها. فقال: «كمثري من فضلك».

عندما ذهب النادل، عاد غراي يملأ كأسيهما ثم اتكأ بمرفقه الأيسر إلى المائدة، وأراح ذقنه على يده ومضى يتأمل غطاء المائدة الأبيض. فتساءلت بما تراه يفكر؟

* * *

كان غراي يفكر في قول لوسيا (وهكذا كل ما فعلته لم ينفع بشيء). وفي المثل الذي يقول: (العمل السيء هو الذي لا ينفع أحداً).

لولا مرض أبيها وما تلا ذلك، لما جلست هنا أمامه على المائدة،

www.liilas.com
المزيد من الروايات

وضوء الشموع يبرز لمعان شعرها الحريري وامتلاء شفتيها الناعمتين واللون الخمري الذي أسبغه على بشرتها الهواء الطلق وأشعة الشمس.

اعتذارها الصادق، أسقط آخر ما تبقى من مقاومته لها. لم يعد يستطيع إنكار أنه على قيد شعرة من الوقوع في حبها.

ولكن، حتى لو شعرت نحوه بالمودة، أكثر من بداية تعارفهما فلا برهان لديه على أنها تشعر نحوه بأكثر من ذلك. أما تجاوبها مع عناقه فلا يدل على أكثر من كونها امرأة حارة الدماء. لقد تآمرت الظروف لجعلهما في وضع بات من الصعب عليه فيه السيطرة على مشاعره.

***

١٣ ـ بعيداً عنك..

أخذت لوسي تنظر إلى غراي، محوّلة نظراتها عنه كلما شعرت بأن تحديقها به قد يقطع سلسلة أفكاره. لكنها لم تره قط بمثل هذه الجاذبية التي أضفاها عليه ضوء الشموع الناعم.

كانت تنظر بإعجاب إلى كتفيه العريضتين تحت قميصه القطني، عندما رفع بصره فجأة فرآها تتأمله.

سألها: «ألم تفكري في المستقبل بعد؟ ما الذي ستفعلينه عندما تستعدين للعودة إلى مهنتك؟»

هل يعني هذا السؤال، رغم الهدنة الباردة بينهما، أنه ما زال يرغب في أن تغادر قريتهم ومحيطهم الأسري؟

ـ ليس الآن. ما دامت أمك تراني مفيدة لها، يسرني البقاء. لا أريد العودة إلى الفن التجاري، ولكن يبدو أن تلك هي الطريقة الوحيدة الآمنة للعيش.

جاءهما النادل بالحلوى، وظنت أنه قد طلب كاتو محشواً بالفاكهة لكن يبدو أنه فضّل «الكريم كاراميل».

قال غراي: «هذا حسن، أرجو أن يكون من صنع البيت. أحياناً يقدمون أشياء رديئة من انتاج المصنع في وعاء من البلاستيك، لكن هذه حلوى كريم كاراميل حقيقية».

سألها غراي: «ما رأيك في إدارة معرض للفنون؟».

www.liilas.com
المعروضة من

ـ لا أظنني مؤهلة لذلك، ثم من سيقبل بتوظيفي مع سجلي هذا؟

فقال ساخراً: «قد يعتبر البعض أن سجلك ينفع تجارياً. أنت تهتمين بالرسوم وتعرفين الكثير عنها. أما الناحية التجارية، مثل مسك الدفاتر وما أشبه، فيمكنك تعلمها بسهولة».

ـ أتعرف أحداً يريد مشرفاً على معرض للفنون؟

ـ ليس حالياً. ولكن هذا ممكن في المستقبل.

ـ أعرف أن (ليس للمتسول حق الخيار) كما يقول المثل، لكنني حقاً لا أريد العمل في لندن، أو في أي مدينة كبيرة. لقد أعطتني قريتكم «لاركوود» دافعاً للحياة في الريف.

ـ المعرض الذي أتحدث عنه ما زال في مرحلة التخطيط ولم يصبح حقيقة واقعة بعد. وقد يكون في قرية أو في مدينة صغيرة وإذا شئت يمكنني أن أبحث لك عن معرض آخر.

ـ شكراً أنا مرتبطة الآن بالعمل مع أمك، فإذا لم تعد بحاجة إليّ، سأبحث عن مكان آخر. لكنني أرجو أن يخبروها غداً أن حالتها بسيطة ولن تؤثر على الطريقة التي تريد أن تمضي بها بقية حياتها.

ـ وهذا ما أرجوه أنا أيضاً ولكن ربما سيكون عليها أن تحصر رحلاتها بالجزر البريطانية أو ربما أماكن أقرب إلى البيت وذلك كي يطمأن بالنا عليها.

فسألته: «هل كونّ الأطباء فكرة واضحة عن حالتها؟».

ـ يظنون أنها تعرضت لجلطة خفيفة في الدماغ، فمثل تلك الأعراض يمكن حصولها إذا أعاق جريان الدم في احد الشرايين الممتدة بين العمود الفقري والرقبة عارض ما، كالنظر إلى الأعلى مثلاً. كانت تفعل هذا قبل أن يحصل لها هذا الأمر؟

هزت لوسيا رأسها: «لا أذكر».

وبعد لحظة أضافت: «بما أن روز ماري نحيفة ولا تدخن، فلا أظنها تعاني من ضغط الدم».

ـ الضغط على الأعصاب قد يسبب ضغط الدم، وأظنها كانت تعاني كثيراً من إرهاق الأعصاب أثناء حياة أبي. فحياتها معه لم تكن سهلة خاصة عند تقدمه في السن ونادراً ما يكون محبو الكمال كذلك.

ـ هل تعتبر نفسك محباً للكمال؟

فكر قليلاً ثم أجاب بجفاء: «نعم. لكني أختلف عن أبي لأنه كان متسلطاً. أنا أتوقع أن يبذل الموظفون في شركتي قصارى جهدهم خلال ساعات العمل، ولكني لا أتدخل في شؤونهم خارج المكتب عكس انطباعك عني حين تقابلنا في لاركوود».

فأجابت: «لقد أعجبني، في الواقع، حرصك على أمك. ولو أنك أصريت لحرمتني من وظيفة مريحة كما أسميتها أنت».

واحمر وجهها وهي تتذكر الظروف التي جعلته يقول ذلك.

ويبدو أنه فهم سبب خجلها هذا فقال مازحاً وعيناه تتألقان: «هل سامحتني على اقتحامي خلوتك؟».

نظرت إلى صحنها لتتجنب نظرته المثيرة للاضطراب، وقالت: «لقد غضبت منك حينذاك، فاقتحامك أظهر ازدراءك لي».

ـ كان هذا شعوري حينذاك، وكنت مخطئاً. أنا آسف.

ومن دون أن تنظر إليه، أدركت كم هو مخلص في اعتذاره. وعندما رفعت نظرها ثانية، رأت في عينيه ذلك التعبير الذي خفق له قلبها. لم تتوقع قط أن ينظر إليها غراي بمثل هذه الرقة التي توشك أن تكون حناناً... توشك!

ـ شكراً. شكراً لقولك هذا.

تكلمت بصوت منخفض، محاولة ألا تجعله يرى كم أثرت فيها كلماته.

ـ والآن، بعد أن اعتذر كلانا ووصلنا إلى تفاهم أفضل، يجب أن تكون علاقتنا في المستقبل سهلة، فلنشرب نخب ذلك.

ورفع كأسه منتظراً أن ترفع كأسها.

فقالت: «ونخب عودة صحة أمك إليها».

فقال: «وهذا أيضاً».

وتلامس كأساهما، وشربا مزيداً من العصير وهما ينظران إلى بعضهما البعض من فوق حافة الكأس.

* * *

عاد النادل: «قهوة؟».

أتت مقاطعته في الوقت المناسب، فسألها: «هل تريدين قهوة، يا لوسيا؟».

ـ نعم من فضلك.

وطلب لنفسه فنجاناً صغيراً من القهوة السوداء الثقيلة ونظر في أنحاء المطعم. لم يكن ممتلئاً بالرواد الليلة، وأراد صرف أفكاره عن لوسيا.

ما حدث بينهما في زيارته السابقة موضوع آخر لا يمكن تجاهله وعليهما مواجهته. لكن كيف يمكنه أن يشرح لها أن ذلك لن يتكرر إلا إذا اتفقا؟ وأنه لم يكن مسروراً من نفسه آنذاك، فهل ستتقبل ذلك منه؟

في الماضي، لم تكن تزعجه علاقاته العابرة بالنساء، لكن ذاك هو الماضي، أما الآن فأمامه لوسيا وهي ليست مثل بعض النساء، تستمتع برفقة الرجل فترة ثم تنساه.

فهي إذا لم تكن بريئة تماماً، فإنها حتماً ضعيفة للغاية. وآخر ما يريده هو حشرها في علاقة بدون مستقبل. وفكرة أن يسبب لها المزيد من الآلام بغيضة. ومع ذلك، كان يريدها ومشاعره نحوها قوية وملحة.

* * *

جاءت القهوة ومعها صحن صغير فيه ألواح صغيرة من الشكولا بالنعناع. شعرت لوسيا بأن غراي ما زال لديه ما لم يقله، ويحاول صرف انتباهه إلى زبائن المطعم، ولم تستطع أن تصدق أنهم يثيرون اهتمامه إلى

هذا الحد.

وعلى ضوء علاقتهما الودية الجديدة، حاولت أن تجرب حظها وتطلب منه أن يوضح لها ما قاله ذات مرة وبقي راسخاً في ذهنها منذ ذاك الحين.

ـ غراي، في الليلة التي عانقتني فيها، ذكرتَ شيئاً عن المواضيع التي تحول بيننا، لكنني لا أفهم ما عنيته.

رأته، للوهلة الأولى، يجفل من صراحتها كما أنها دهشت هي أيضاً لتصريحها عن ذلك بمثل هذا الهدوء والعفوية.

فقال: «كنت أنوي التحدث معك بهذا الخصوص، وذكرك له جعل الأمر أسهل. ما كنت أعنيه، بصراحة، هو اننا، نحن الإثنين ندرك ما بيننا من انجذاب، وهذا شيء لا يمكن تجنبه، كما أظن. فنحن عازبان ولا نرتبط بعلاقات، وقد مكثنا معاً فترة كافية. ومع كل هذه العوامل، لمَ لا نرغب بإقامة علاقة؟».

وسكت لحظة والمشاعر تضطرم في عينيه ثم سألها: «هل توافقين؟».

أتراه يطلب منها أن تؤكد له أن ذلك أمر طبيعي؟ أم أنه يريد أن يعرض عليها اقتراحاً بأنهما حران في غياب أمه أن يقضيا الليلة معاً؟

فقالت بحذر: «أنا موافقة على أنك رجل جذاب للغاية، وأن كل امرأة تعرفك عن كثب يزداد انجذابها اليك. ولكن، أعرف أن الكثير من الناس لا يفكرون في الانجراف مع الآخرين لمجرد الإعجاب بهم. وأنا شخصياً لا أرى في ذلك فكرة جيدة. أظن أن العلاقة الجسدية يجب الاحتفاظ بها من أجل... الزواج».

أخذ غراي رشفة من قهوته. لاحظت أن يده ترتجف، وكذلك ارتجفت يداها وهي تخفيهما في حجرها بعيداً عن الأنظار.

قال: «هذا ما كنت أعنيه. ولكن إقامة علاقة جادة ليست ممكنة بالنسبة إليّ في الوقت الحاضر، هناك أسباب لرغبتي في عدم... الارتباط.

www.liilas.com

لهذا أظن من الأفضل لكلينا أن نتجاهل أية مشاعر خارج الصداقة».

ـ أنت ولست أنا، من خرج على ذلك العهد.

قالت هذا ببرودة، فقال يذكرها: «ذلك نتيجة شيء من الاستثارة. لا تغضبي... ولا تسمحي لذلك بأن يجرح مشاعرك، فأنا أتمنى أن تكون الظروف مختلفة. ولكنه لسوء الحظ، غير ممكن، وارتباطنا معاً بعلاقة ما، لن يؤدي إلا إلى تعقيد مؤلم للأمور».

وأنجدتها كرامتها: «أليست غطرسة منك أن تفترض أنني أتمنى أن... نرتبط؟».

وقلدته بالتوقف قليلاً قبل كلمة نرتبط.

ثم رفعت رأسها بغضب: «لأنني لم أصدك حين عانقتني لا يعني أنني سأوافق لو حاولت أن تنجرف أكثر».

وفجأة، أصبح الوضع بينهما هشاً. أدركت أنها لن تستطيع أن تأخذ رشفة أخرى من القهوة أو تدعي أن الأمور على ما يرام. وفيما نادى غراي النادل ودفع الحساب، أحست أن عليها أن تخرج من هنا. فقالت وهي تدفع شعرها إلى الخلف ثم تحمل حقيبتها وتبتعد عن المائدة وكأنها ذاهبة إلى استراحة السيدات:

ـ أرجو المعذرة.

كانت تشعر بالغضب والإذلال، فالسبب الذي يدفعه للتراجع عن اقامة علاقة عاطفية معها... هو أنه لا يعتبرها لائقة لاحتلال أي مكان في حياته عدا أن تكون كلب حراسة لأمه.

كيف أمكنها أن تخطىء وتظنه يتودد إليها... وأنه بدأ يبادلها الشعور؟ لا بد أنه يراها حمقاء كي يظن أنها طوع أمره وستكون كذلك على الدوام؟

وتساءلت كم من الوقت سيمر قبل أن يدرك أنها ليست في غرفة الحمام بل غادرت المطعم. كانت قد أصبحت في منتصف الطريق المؤدي إلى القرية، حين تذكرت أنها تركت وشاحها على مسند الكرسي، وأنها لا

تحمل مفتاحاً للمنزل.

كبحت شتيمة تعلمتها في السجن كادت تفلت من فمها، وشعرت بالندم لأنها لم تحضر المفتاح الاحتياطي المعلق على مشجب المعاطف في الردهة. وستضطر للبقاء في الشارع بانتظار حضور غراي وهو آخر ما تتمناه، ولكن لم يكن أمامها بديل كما يبدو.

لو أن الكنيسة مفتوحة لجلست فيها، لكنها شبه متيقنة من بقائها مغلقة خارج أوقات الصلاة.

يمكنها أن تتمشى في الدروب بين كروم العنب التي تغطي أرض الوادي. ولكن رغم تألق القمر، رأت سحباً سوداء تنتشر من الغرب ولن يمضي وقت طويل حتى يعم الظلام.

* * *

وبينما كانت تفكر في ما عليها فعله، وضع غراي قائمة الحساب في جيب بنطلونه الخلفي وغادر المطعم، لاعناً نفسه لسوء معالجته الموقف. فقد أفسد الليلة أمراً بالغ الأهمية بالنسبة إليه وهو المحتك الخبير بمفاوضات العمل وما تتطلب من دقة وحسن تصرف.

في البداية، عندما نهضت لوسيا وتركت المائدة، ظنها ذهبت لتلوذ بالحمام إلى أن يهدأ غضبها وتسيطر على نفسها، أو تنفس عن مشاعرها بنوبة دموع. نشأته بين أخوات ثلاث جعلته يتعرف باكراً على تلك الدموع التي يحتفظ بها الرجال لأعمق الأحزان بينما تتخذ منها النساء غالباً وسيلة للتنفيس عن المشاعر والاحتقان.

وبالرغم من ذلك، جعله التفكير في مشهد لوسيا وهي تبكي، يندم. إلا أنه أدرك بعد دقائق أنها قد تركته وغادرت المطعم غاضبة، وما تركها الوشاح على الكرسي إلا سهو غير مقصود، وعندما سأل النادل الواقف عند المدخل، تأكد من أن «السنيورينا» خرجت.

وهو يهبط التل للحاق بها تساءل عما ينبغي له قوله لإصلاح الأمر

www.liilas.com
المعزومة من الليلة

بينهما أو جعله مقبولاً إلى اقصى حد ممكن طالما أن القيود الحالية في حياته باقية.

لم يجد تفسيراً مقبولاً لما سيقوله، فالتفسير الحقيقي لا يمكنه البوح به لها، لأنها قد لا تجده معقولاً. فالنساء ينظرن إلى الحياة من منظور مختلف، أي من قواعدهن الصارمة وأمه هي النموذج البارز. فقد تخلت عن كل شيء له قيمة عندها بسبب حبها لأبيه. كان ذلك مجرد قرار عاطفي اتخذته فتاة شابة انطلاقاً من عواطفها المحمومة نحو رجل لا يريد أن يقدم أي تنازل.

وكانت تلك غلطتها، لكن المرأة هي المرأة. ففي اللحظة التي تقع فيها بالحب، ترمي بعقلها جانباً. كان عليها أن تنتظر وتختبر عمق مشاعرها، لكنها نشأت على قناعة أن هناك حباً حقيقياً واحداً في الحياة، وأن أباه هو الحبيب المناسب، فقفزت نحو هذا الزواج الذي قد يكون أحد الأسباب التي أدخلتها المستشفى الآن.

أما خبرته فعكس خبرتها. كان في التاسعة عشرة حين تلقى درساً مؤلماً في الحب شكّل لقاح المناعة له ليس ضد الرغبة بل ضد العاطفة والحنان الذي يفرّق بين الحب والشهوة.

لقد حاول، لفترة، أن ينكر الحنان الذي أيقظته لوسيا في نفسه. والآن، لقد قالتها بكل وضوح، إنها تراه جذاباً جسدياً لكنها لا يمكن أن تنسى أبداً أنه السبب في سقوطها، فهو الرجل الذي أدت شهادته إلى معاناتها، ذلك كابوس سيظل يراود أحلامها بقية حياتها.

(أليست غطرسة منك أن...؟) قذفت هذا في وجهه، ولم يستطع الإنكار. فهو، اعتماداً على عناق واحد... وصم نفسه بالغباء المفرط، كان عليه أن يُبقي فمه مطبقاً. فما الذي سيربحه من توضيح الأمور؟

* * *

قرب سفح التل، نظرت لوسيا من فوق كتفها. ولأنها لم تكن تتوقع

أن ترى غراي خلفها، فقد دهشت وهي تراه ينزل المنحدر بخطوات واسعة ليلحق بها قبل أن تصل إلى المنزل.

حثت الخطى وهي تتساءل عما سيقوله لها، إذا كان غاضباً لتركها له.

عندما سارا في الزقاق الضيق خلف الكنيسة، كان الضياء ما زال منتشراً. أما الآن، وفي ظل بناء من حجر الصوان، أصبح المكان معتماً. ولكن، حتى لو لم يكن غراي يتبعها، لما شعرت بأي توتر، فالقرية مكان آمن ولا يتوقع أن يكمن أحد في تلك المساحة المعتمة.

فكرت في أنها تحب العيش هنا. ومن غير وعي تمنت أن يكون ذلك مع غراي، لكنها تعلم أنه حلم جنوني لن يتحقق. فإذا استطاعت التكيف مع هذه الحياة القروية البسيطة، لن يتمكن غراي من ذلك أبداً، فمكانه في العالم ترسخ على الأرض التي نفيت منها إلى الأبد. لا مكان لسجين سابق في عالمه السامي ذي الجوّ النقي.

أدركها بعد لحظات من وصولها إلى باب المنزل فبسط وشاحها على رأسها ثم أنزله على كتفيها بسرعة وكأنه مصارع ثيران يلوح للثور بعباءته الحمراء وقال بجفاء: «لو أنني لم أدرك أنك رحلت، لكان عليك أن تنتظري في هذا البرد وقتاً طويلاً كي آتي بالمفتاح».

بدا هادئاً إلى حد مدهش لكنها شعرت أنه شديد الغضب في داخله.

فتح الباب ومد يده ليشعل الضوء، ثم تراجع مشيراً إليها بالدخول.

في الردهة، قالت له باقتضاب: «تصبح على خير».

ثم توجهت نحو السلم لتصعد إلى غرفتها وهي تتوقع أن تهبط يدان قويتان على كتفيها ثم تديرانها لتواجهه.

لكن هذا لم يحدث، بل قال: «تصبحين على خير».

ثم سمعته يقفل الباب الخارجي جيداً. وقبل أن تصل إلى أعلى السلم، كان قد دخل إلى المطبخ ليحضر لنفسه مزيداً من القهوة.

* * *

www.liilas.com
المجرمة من الحب

كانت لا تزال مستيقظة عندما دقت ساعة الكنيسة الواحدة، ثم دقت النصف.

لقد ندمت الآن بمرارة على تصرفها ذاك، فبدلاً من ملاحظتها الحمقاء عن الغطرسة التي دفعتها إليها كرامتها الغبية، كان يجب أن تسأله:

ـ وما هو ذلك التعقيد المؤلم؟

قبل ذلك بثوانٍ، طلب منها ألا تغضب أو تشعر بجرح في كرامتها، لكنها وقد تملكتها المشاعر الجياشة، تجاهلت ذلك.

من الطابق السفلي سمعت بخفوت صوت إضاءة مصباح في آخر الردهة. بعد ذلك بلحظات، أرهفت السمع، فسمعت صوت باب يفتح ثم يغلق. أتراه قصد الحمام القريب من غرفة نومه؟

كانت روز ماري تذهب إلى الحمام أثناء الليل لكن لوسيا تشك في أن غراي يفعل ذلك. بعد دقائق ستتأكد مما إذا كان الأمر عادياً وذلك باندفاع الماء في المرحاض.

وعندما لم تسمع ذلك، أدركت أنه ذهب إلى المطبخ ليحضر على الارجح فنجان قهوة وأنه، مثلها، لم يستطع النوم.

لبث لها هذا عندما نزلت من سريرها وسارت إلى النافذة، فقد رأت ضوءاً ينساب من نافذة المطبخ ويضيء الفناء.

وفي لحظة تهور، اتخذت قرارها. ارتدت عباءتها ثم مشطت شعرها وبعد قليل نزلت السلم حافية القدمين، كيلا يسمع وقع خطواتها.

وسحبت نفساً عميقاً، ثم فتحت باب المطبخ.

كان غراي متكئاً على الحاجز الذي يفصل المطبخ عن غرفة المائدة، وحول وسطه منشفة طويلة.

كان الضوء المنسكب على كتفيه وصدره يظهر الاسمرار الخفيف الذي أسبغته الشمس على بشرته وجعلتها أشبه بحجر مصقول. كان، بالنسبة إلى رجل في منتصف الثلاثينات من عمره، ذا جسد رائع ذكّرها

بتماثيل الرياضيين من الإغريق القدماء.

استقام فجأة: «ما الذي تفعلينه هنا؟».

ـ لم أستطع النوم فجئت لأشرب شيئاً.

ونظرت إلى إبريق الشاي الكهربائي. كان الضوء الأحمر الذي يشع في أسفله عند تسخينه، غير ظاهر في هذه اللحظة.

ـ أتريدين ماء؟

وفتح الثلاجة ليخرج زجاجة مياه معدنية.

فقالت: «لا. لا أريد ماء. بل أريد الشاي».

ناولها الإبريق فأخذته شاكرة.

ـ قدماك ستبردان. الأفضل أن تتناولي الشراب في سريرك.

كان واضحاً من كلامه أنه لم يرحب بقدومها.

ـ القرميد الخزفي ليس بارداً كالبلاط، وأنا ألبس أكثر مما تلبس.

وكان هو أيضاً حافي القدمين.

زم شفتيه بغير استحسان لكنه لم يقل شيئاً فرفعت فنجانها إلى شفتيها، ثم قالت: «ما دمت هنا، أليس علينا أن نتحدث؟».

فقال: «أنت التي انهيت آخر حديث لنا».

ـ أعرف هذا، ولكن... من أجل أمك.. أنا مستعدة للاستمرار في ما اتفقنا عليه من... صداقة.

رفع فنجانه ورشف منه. وشعرت بالغريزة أنه يوشك على الانفجار، لكنه لا يمكن أن يكون أكثر توتراً منها. فهي تمنع نفسها من القيام بتصرف غير طبيعي، أو، على الأقل، تصرف يدفعها إليه حبها البالغ له.

وقال معترضاً: «الصداقة ليست خياراً ملزماً. يمكننا، كما تقولين، أن نتظاهر بذلك لمصلحة أمي. لكننا، نحن الاثنين، قد وضعنا أوراقنا على الطاولة فلم يعد هناك فائدة من الاجتماع والحديث. والأفضل أن نبقى، قدر الإمكان، بعيدين عن بعضنا البعض».

فقالت: «هنالك بديل لذلك»

فقال بفتور: «إذا كنت تعنين رحيلك، فهذا لن ينفع لأنه سيكدر أمي ويقلقها، وعلى كل حال، أنت لا تزالين غير قادرة على بدء حياة جديدة وحدك، بعد».

ـ أنت تقلل من شأني يا غراي... فبإمكاني أن أشق طريقي وحدي، لكنني لا أظن ذلك ضرورياً فالحياة تتكيف وفق الظروف. لقد تحدثت أنت هذا المساء عن مشاعرنا المشتركة واتفقنا أن تقتصر علاقتنا على الصداقة، ولكن الصداقة لا تعني أن نكون عدوين.. دعنا نتعارف أكثر.. ولنترك القدر يسيّرنا.

وتقدمت نحوه، واضعة كأسها على المنضدة، ثم ألقت براحتيها على صدره الصلب... بدت هادئة فيما هي ترتجف من الداخل... رفعت وجهها إليه وهي تقول برقة:

ـ فلنحاول.

أمسك بمعصميها بسرعة يشدّ عليهما. ولما كانت تدرك أنه لا ينوي إيذاءها، لم تجفل فسألها: «أتظنين أن ما تطلبينه ممكن؟».

ـ أعترف أنني أريدك، أريدك أكثر مما أردت أي شخص في حياتي. ولكنني غير مستعدة بعد لما تطلب، فلنكن صديقين متقاربين لا عدوين متنافرين ولنحرص ألا نتجاوز حدود الصداقة.

وعلى الفور، رأت وميض الموافقة على اقتراحها في عينيه السوداوين وهو ينظر إليها. ولكنه بدا عاجزاً عن منع نفسه من ضمها وما هي إلا لحظة حتى كانت بين ذراعيه، وهو يعانقها بعاطفة محمومة محت كل تفكير في ذهنها تاركة حواسها فقط تعمل.

شعورها بذراعيه حولها، وبعناقه الملتهب، أسعدها أكثر مما كانت تتخيل. استسلمت لعناقه وقد اكتسحتها المشاعر المتلاطمة.

* * *

عانقها إلى أن شعر بقلبها يخفق بشدة كقلبه ولكن ذلك لم يجعلها تنسى ما قاله إذ قالت: «دعنا لا نتجاوز حدود الصداقة».

أخذ يتأملها ويدرس تفاصيل جسمها الناعم.

وتصوّر مدى رقتها، وجرى دمه حاراً في عروقه، ولكنه قال: «حسناً. لن أتجاوز حدود الصداقة وسأحاول أن نتعارف أكثر ولكن ذلك لن يمنعني من معانقتك».

وأخذت لوسيا تتساءل، عما إذا كانت مجنونة.

ولكن هذا لا يهم، فهي تحبه كما لم تحب أي رجل آخر، وإذا كان هذا كل ما ستحصل عليه منه، فهو أفضل من لا شيء.

رفعت ذراعيها لتعانقه، فضمها إليه أكثر وانحنى ليبادلها العناق.

* * *

كانت الشمس مشرقة عندما استيقظت، والساعة تشير إلى الثامنة. لقد تأخرت في النوم وهذا ليس بالمستغرب بعد ليلة السهر الطويلة التي أمضياها معاً.

دندنت أغنية سمعتها عبر الراديو حين كانت ترعى والدها، أغرمت بإيقاعها المميز الشاعري وأخذت تردد أنغامها وهي مستلقية في السرير تتساءل: «أين هو غراي؟».

لعله يحضر القهوة في المطبخ. أتراه يشعر بالفرح نفسه الذي تشعر به؟

كان عناقهما تعبيراً عن حب حقيقي. لكنها تشك في قدرته على إدراك ذلك.

تذكرت أن عليهما الذهاب إلى المستشفى. فتناولت عباءتها من فوق الكرسي وتوجهت الى الحمام لتستحم سريعاً.

www.liilas.com

استحمت ونظفت أسنانها وبدلت ملابسها وزينت وجهها في خمس وعشرين دقيقة. كانت في أعلى السلم توشك على النزول عندما سمعت أصواتاً في الشارع. كانا شخصين، رجلاً وامرأة، يتحدثان بالإسبانية، وميزت صوت غراي رغم أنه لم يكن يتحدث بلغته.

فتحت النافذة القريبة من فسحة السلم وأطلت إلى الخارج. رأت جارتهما الأسبانية فلوحت لوسيا لها بيدها. كان غراي يحمل كيس خبز وبدا أسعد وأكثر ارتياحاً من أي وقت مضى، منذ عرفته لوسيا، فحيتهما بالأسبانية: «صباح الخير».

نظر الإثنان إلى أعلى، ورأت ابتسامة غراي تبهت، وظهر عوضاً عنها تعبير لم تستطع تحديده. اعتذر للجارة بأدب واتجه إلى الباب الأمامي.

وعندما نزلت لوسيا السلم، كان يغلق الباب خلفه، فعادت تقول: «صباح الخير. هل كنت عند الخباز؟ ظننتك لا تعرف مكانه».

ـ سألت عن مكانه.

قال هذا وهو يدخل المطبخ ويضع كيس الخبز على المائدة. وعندما وقفت إلى جانبه، ضمها بين ذراعيه وعانقها، ثم قال: «ظننتك ما زلت نائمة، أين تحبين أن تتناولي الطعام».

ـ فلنتناوله في الحديقة.

أعدت لوسيا صينية الفطور.

أول ما قاله، وهما جالسان إلى المائدة في الحديقة، هو أنه سواء سمحوا لأمه بأن تخرج من المستشفى اليوم أو لم يسمحوا، سينصحونها بألاّ تسافر إلى الوطن بالطائرة. كما قال إنه سيتصل بالبيت ويطلب من جاكسن إحضار السيارة إلى هنا فوراً.

ـ هل يتحدث الفرنسية؟

ـ لا، لكنه سيتدبر أمره فهو رجل واسع الحيلة، وستكون مغامرة بالنسبة إليه.

كانت لوسيا تفشر حبة مندرين لتأكلها مع الخبز الطازج الذي لفه غراي بفوطة ليحفظه ساخناً. وعندما فتح الفوطة وقدم إليها السلة تصاعدت الرائحة الشهية، فبدت للوسيا وكأنها تختزن سحر هذا المكان الذي ذاقت فيه، ولو لفترة وجيزة، سعادة لا تنسى.

قال غراي: «ربما سأطلب من برادي أن تأتي معه، فقد كانت ممرضة لفترة قصيرة قبل أن تتزوج وهي الشخص المثالي للعناية بأمي أثناء عودتنا. هذا يجعلك حرة للعودة معي بالطائرة...».

ـ رأيي أن ذلك رائع. ولكن ماذا ستقول أمك؟ المفروض أن أذهب معها.

ـ في هذه المرحلة، عليها ألاّ تعرف شيئاً. ثلاثة أشخاص كُثُر في المقعد الخلفي من السيارة وجلوسك بجانب جاكسن لن يسرّه، فهو يحب أن يكون وحده في الأمام.

فقالت: «ماذا لو حدث مكروه واحتاجوا إلينا... خاصة إليك؟».

ـ إذا كان هنالك احتمال حدوث أي مكروه لها، فسأرتب أمر إرسالها في سيارة إسعاف إلى الوطن. لدينا بوليصة تأمين ضد الطوارىء. كما أن جاكسن سيظل على اتصال بي بواسطة هاتفه الخلوي. يمكنه أن يستدعيني متى شاء.

شرب بعض القهوة وهو يراقبها عن كثب من فوق حافة الفنجان.

كانت نظراته مماثلة لتلك التي رأتها في عينيه من فسحة السلم ولم تجد لها تفسيراً.

وتابع يقول بلهجة واقعية: «القضية هي أننا، بحاجة إلى أن نمضي معاً بعض الوقت. أنا بحاجة لأن أخبرك بعض الأمور... ونناقشها معاً».

www.liilas.com
المزيد من البرامج

ـ ألا يمكنك أن تخبرني الآن؟

ـ لا وقت لدي. حالما ننتهي من الفطور، يجب أن نذهب إلى المستشفى.

لم تفهم لوسيا لماذا لا يستطيعان التحدث في هذا الأمر، مهما كان، وهما في طريقهما إلى المستشفى. لكنها لم تشأ أن تضغط عليه. فكلما طالت معرفتها به، كلما تملكها إحساس قوي بأن كاهل غراي مثقل بعبء لا يمكنها سوى أن تتكهن به، وهي لا تريد أن تضيف إليه عبئاً آخر. إذا أراد إرجاء الحديث، فليكن لأن الحب يكمن في منح المحبوب ما يريده. وإذا أرادها أن تصبر، فستبذل قصارى جهدها للتحكم بلهفتها حتى تعرف مصيرهما... هذا إذا كان أمامهما مصير مشترك.

لم يقل شيئاً أثناء الطريق ولكنه جذب يدها فجأة وقبل أصابعها.

* * *

أوقف غراي السيارة قرب المستشفى، ثم التفت إليها قائلاً: «قد تكون هذه اللحظة آخر وقت نمضيه وحدنا في الوقت الحالي فلنستفد منها».

ثم مال إليها وعانقها، بعد أن فك حزام الأمان. حاولت أن تفك حزامها وعندما نجحت في ذلك طوقت عنقه بذراعيها وعانقته بحماسة من دون أن تعير اهتماماً لو رآهما أحد ما. لأول مرة في حياتها، فهمت كيف أن الحب يمكن أن يدفعها إلى القيام بأعمال طائشة مجنونة. وكان غراي هو الذي قطع العناق، قائلاً: «علينا أن نتوقف عن هذا قبل أن...».

وكان صوته أجش مثقلاً بالمشاعر، ثم ترك الجملة قبل إتمامها.

وعندما انفصلا، ابتسم لها بأسف: «الأفضل أن تدخلي قبلي. أحتاج دقيقة لأهدأ».

سرها هذا الاعتراف، ليت لها هذا التأثير على قلبه! لكن، لا بأس. ولامست خده وأسعدها ملمس بشرته الناعم.

ونزلت من السيارة ثم اتجهت إلى مدخل المستشفى.

* * *

www.liilas.com
المترجمة من الحنان

١٤ ـ في مهب الرياح

وجدت السيدة خارج السرير مرتدية كامل ملابسها، وبعد أن تبادلنا تحية الصباح، سألتها: «أين غراي؟».

ـ سيكون هنا بعد دقيقة. هل أمضيت ليلة جيدة؟

ـ لم تكن سيئة، لكنني الليلة سأعود إلى سريري الخاص... أعني في البيت. لقد سمحوا لي بالخروج والحمد لله.

فقالت لوسيا: «هذا رائع».

ـ كانوا بمنتهى الرقة معي... لكن وجودك في المستشفى من دون أن يفهم أحد لغتك، يجعلك تشعرين بالغربة... أو أنك طفلة... لا يمكنك السيطرة على الوضع. لماذا تأخر غراي؟ أتراه يتحدث إلى احد الأطباء؟

فقالت لوسيا: «أظن أن هذه نيته حين أرسلني قبله».

فقالت روز ماري: «أتوقع منه، من الآن فصاعداً، أن يلفني بالقطن، ولن يدهشني إذا ما حاول أن ينهي رحلاتنا هذه. لكنني لن أصبر على ذلك. في شهر الصيف يكون الجو بالغ الحرارة والإزدحام شديداً، لكننا في المرة القادمة قد نفكر بالذهاب إلى الجزر اليونانية في أيلول».

سمع غراي كلماتها الأخيرة وهو يدخل الغرفة، فقال وهو يتقدم ليعانقها: «هذا وقف على صحتك يا ماما».

ـ ستكون صحتي بأحسن حال. لا أريد أن أتدلل.

بعد عودتهم إلى المنزل، علمت روز ماري أن غراي طلب من برادي

وجاكسن القدوم إلى اسبانيا في أسرع وقت ممكن، فتملكها السخط.

ـ هذه سخافة يا غراي، وإسراف لا ضرورة له على الإطلاق.

ـ لا أظن ذلك وكذلك طبيبك. لقد جربت السفر بالطائرة عندما جئت إلى هنا هذه المرة. أنها رحلة متعبة جداً بالنسبة لشخص مريض. ستستمتعين بالسفر في السيارة بمروركم في فرنسا، وأنا ولوسيا سنعود بالطائرة.

* * *

في تلك الليلة نام الجميع باكراً، ولكن رغم حاجتها إلى النوم، بقيت لوسيا مستلقية في الظلام تفكر في غراي النائم في الطابق الأرضي.

ماذا يريد أن يخبرها يا تُرى؟ هل سيقترح نقلها إلى العمل في شركته؟ أيحمل من الحقد تجاهها ما يجعله يقترح عليها أن تصبح لعبته، وهل يظنها ستوافق؟ ألأنها أغمضت عينيها مرة عن امكانية استغلال عملها بطرق غير مشروعة، ليس هناك ما لا يمكنها القيام به؟

أوصلها طول التفكير إلى استنتاج مزعج وهو أنها لن تخضع لأي رجل مهما كان، حتى لو كانت تحبه. على أيّ حال، من سيتألم إذا ما اخطأت؟ هي فقط من ستعاني وتتألم.

* * *

ليلتان متتاليتان من دون نوم، ولأسباب مختلفة، تركتا لوسيا بالغة الشحوب في الصباح التالي.

الليلة الماضية أصرّ غراي على أن تتناول أمه فطورها في الفراش. وعندما نزلت لوسيا إلى المطبخ، كان إبريق القهوة على النار، لكن كيس الخبز لم يكن معلقاً خلف الباب. بدأت بإعداد صينية فطور أمه، وأجفلت قليلاً عندما سمعت الباب الأمامي يفتح. أتراه سيغتنم الفرصة ويعانقها؟

ولم تنتظر طويلاً قبل أن تجد الإجابة على سؤالها. فقد جاء إلى المطبخ، وألقى بكيس الخبز جانباً ثم وضع ذراعيه حولها كما فعل صباح أمس.

www.liilas.com

ـ كيف حالك أيتها الصديقة العزيزة؟

فقالت: «بخير أيها الصديق».

أحنى رأسه وعانقها كما فعل في السيارة وبالرغبة ذاتها ثم قال: «حسن. الصبر صعب».

همس بذلك في أذنها فتراجعت، قائلة: «ربما لن تطيع أمك أوامرك. أنا واثقة من أنك لا تريد أن تدخل أمك وتجدنا على هذه الحال».

ـ هذا صحيح... ليس الآن. ولكن من الصعب جداً أن أبتعد عنك.

ومع ذلك ابتعد عنها تاركاً إياها تحس بوحشة غريبة بعد أن كانت بين ذراعيه تشعر بارتياح واشباع عاطفي ثمين.

صعدت لوسيا بصينية فطور السيدة كلدروود فوجدتها متكئة على أربع وسائد، تنظر من النافذة إلى الجبال البعيدة وراء الوادي.

فخاطبتها لوسيا مستشهدة بقول مأثور: «ألق نظرة الوداع على كل شيء جميل وذلك في كل ساعة».

ـ من قال هذا الكلام؟

فأجابت لوسيا: «أظنه وولتر دي لامار».

فقالت روز ماري: «الانسان ينسى أن الحياة لا تدوم إلى الأبد، إلى أن يحدث شيء يذكره بذلك».

ـ أعرف هذا. فقد كانت الحرية بالنسبة إلي، أمراً مسلماً به إلى أن فقدتها.

ووضعت الصينية على ركبتي مخدومتها ثم وقفت تنظر إلى الجبال، متابعة كلامها: «أتساءل إن عشنا هنا، عما إذا كنا سنشعر بعد فترة، بأننا مسجونون. المكان هنا أشبه بالفردوس، ولكن...».

وتركت بقية الجملة معلّقة.

من الأسباب التي جعلت الوادي يبدو في نظرها كالفردوس، هو وصول غراي. من دونه، سيبقى رائع الجمال بالتأكيد، لكن قلبها سيكون

في مكان آخر... عنده... حتى الأماكن التي لا ترغب بالذهاب إليها، مثل المناطق القطبية والصحاري والأدغال والأراضي القاحلة... يمكن أن تتحمّلها إن كان هو فيها.

وقالت روز ماري: «أنا أحب الأسفار، لكنني لا أحب العيش في الخارج، لأنني سأشتاق إلى بناتي وأحفادي. أحب أن اكون قريبة من أسرتي».

أوشكت لوسيا أن تقول وماذا لو أرادت اسرتك أن ترحل إلى آخر الدنيا؟ هل ستشعرين بأنهم هجروك؟ لكنها احتفظت بهذه الفكرة لنفسها. لحسن الحظ لم يكن أحد من بين أولاد روز ماري يحب الهجرة كما والد لوسيا، الذي تخلى عندما كان شاباً عن وظيفة عرضت عليه في صحيفة استرالية لئلا تحزن أمه.

سُمع نقر على الباب، ودخل غراي.

ـ تلقيت لتوّي اتصالاً من «برادي». لقد اجتازا النفق عبر نفق «يورو» عصر أمس ثم وجدا مكاناً مريحاً يمضيان فيه الليلة. وبعد إجتيازهما الجبال، لن يستغرق وصولهما إلى هنا وقتاً طويلاً، قد يصلان مساء غد.

فسألته أمه: «أين سيقيمان؟ لا شك أنهما بحاجة إلى الراحة قبل أن نتوجه إلى الوطن. لا بد من القول إنني، رغم جمال الإقامة هنا، اشتقت إلى الوطن والأهل».

فقال: «هناك نزل صغير قرب القرية حيث يتعهدون بتقديم الطعام إلى متسلقي الجبال كما أخبرني الخباز. سأذهب لرؤيته فهل تأتين معي يا لوسيا؟ ستكون أمي على ما يرام في الفترة القصيرة التي تتفحص فيها النزل».

فقالت روز ماري: «نعم، اذهبي يا عزيزتي، فأنت تعرفين ما الذي يعجب برادي أو لا يعجبها. لا أريدها أن تقطع هذه الرحلة المتعبة ولا تكون مرتاحة هنا. أما جاكسن فلا يهمه إلا نظافة المكان فالرجال لا تهمهم

www.liilas.com

خشونة المكان، لكن برادي صعبة الإرضاء نوعاً ما».

إنها نعمة إلهية أن تكون وحدها مع غراي ولو لفترة قصيرة. على أي حال، بقي الحديث بينهما مقتصراً على الأمور العامة فلم تجد لوسيا الشجاعة لإثارة الموضوع الذي يشغلها. كان النزل بسيطاً نوعاً ما، ولا شك أن برادي ستجد المكان مقبولاً لتلك الفترة القصيرة التي ستمضيها هنا.

وأثناء العودة، تحدث غراي طوال الوقت عن جاكسن الذي تعرفت إليه أمه في المحكمة منذ ثلاثين سنة حيث كانت قاضية صلح، وكان هو في العشرين من عمره ويحاكم بتهمة السُكر والإخلال بالنظام.

قال وهو يلقي عليها نظرة جانبية: «قدمت له أمي عملاً كخادم ولو علم أبي بذلك لثار غضبه، كما فعلت أنا حين جاءت بك إلى لاركوود».

ثم تابع يقول: «حكمُها على الناس أفضل من حكمنا. فلم يخب ظنها في جاكسن وكذلك أنت».

ـ لكنني لم أمضِ معها وقتاً كافياً لأثبت ذلك.

ـ لقد أثبته لي.

تكلم بابتسامة وصوت دافىء. فيما بعد، وأثناء الغداء، جاء كلام أمه وأخمد تفاؤل لوسيا.

حدث ذلك بعد ملاحظة ألقتها روز ماري عن مبلغ حسن حظها لعثورها على خادمين أمينين مثل برادي وجاكسن، فقالت لوسيا: «أتظنين أنهما قد يتزوجان؟ إنهما منسجمان معاً».

ـ آه، لا، أنا واثقة من أن ذلك لن يحدث. قد يكون ملائماً من بعض النواحي أن يسكنا في الكوخ، تاركين لي غرفة لاستعمالها عندما يمتلىء البيت في عيد الميلاد، وقد تعجب الفكرة جاكسن، إذ لاحظت مرات عديدة أنه يحمل عطفاً خاصاً لبرادي. كما انها تحبه أيضاً... ولكن على مستوى الصداقة فقط، فهما من بيئتين مختلفتين تماماً. إنه من أسرة خاملة

لا قيمة لها بيتما والدا برادي من أحسن الناس».

فقال غراي: «وهل هذا مهم وقد أصبح الإثنان في منتصف العمر؟».

ـ إنه مهم في الأعمار كلها. فالزواج ليس علاقة سهلة حتى بالنسبة إلى كبار السن الذين يفترض أنهم اكثر حكمة، فأي نوع من انعدام التكافؤ يزيد في صعوبة الزواج.

اعتصر قلب لوسيا. إذا كانت روز ماري تظن أن اقتران برادي وجاكسن غير متكافىء، فكم سيفزعها الأمر إن عرفت تمنيات لوسيا؟ من الواضح أن الهاوية التي تفصل بينها وبين غراي هاوية جهنمية لا جسر لها بنظر أمه. وربما هذه هي الحقيقة، أو ربما لهذا السبب كان غير راضٍ تمام الرضا...

***

لم يكن غراي راضياً عن نقص لباقة أمه فهو يعرف ماذا ستفهم لوسيا من ملاحظاتها عن عدم التكافؤ. ورغم أنها كانت ماهرة في اخفاء ردة فعلها، إلا أن غريزته أشارت أن كرامتها جرحت.

ورغم حبه البالغ لأمه، إلا أن هناك أوقات يكاد يفقد فيها صبره. ربما عندما يصبح في مثل سنها، سيتمسك، مثلها، باعتبارات الماضي لكنه يرجو ألا يحصل هذا.

عندما ينتهون من الغداء، سيحاول التنزه سيراً على الأقدام ليشرح لها الوضع بأكمله.

ولكن لا الوقت ولا المكان يسمحان بذلك والأفضل أن يرجىء ذلك إلى أن ترحل أمه حتى يمكنه أن يحدثها برفق، خطوة خطوة، متلمساً الأرض عند كل خطوة. لم يكن لديه شك في أنها تحبه. أما عن مقدار ذلك الحب، وهل هو كافٍ؟ فهذا سؤال هي وحدها التي تستطيع الإجابة عنه.

***

www.liilas.com

١٥ ـ عاصفة في الأفق

بدأت السيدة كلدروود وفريقها رحلتهم المتمهلة بعد الفطور. وسلكوا الطريق الشمالي.

وعندما جلس بجانب لوسيا، قال لها: «وأخيراً وحدنا!».

الابتسامة العريضة التي رافقت كلماته، رفعت معنوياتها. فمنذ أن عانقت أمه عند الوداع وهي تشعر بالأسى.

وقفت تنظر من النافذة دون أن ترى شيئاً وهي تفكر في ما ستقوله.

لكن غراي اخترق الصمت وهو في غاية الارتياح قائلاً: «هل تريدين أن تغتسلي قبل الخروج لتناول الغداء؟».

فقالت بلهفة: «نعم، نعم... أريد ذلك».

ـ إفعلي ذلك اذن.

ورفع سماعة التلفون ليتصل.

كان ما يزال يتكلم في الهاتف عندما توجهت إلى غرفتها لتستحم.

أراحتها المياه الساخنة، وحدثت نفسها بأن توتر أعصابها ما هو إلا غباء، ليخبرها غراي بما يشاء فهو لن يغير حقيقة حبها له. والآن، في هذه الساعة وهذه اللحظة، المنطق يحثهما على أن يستمتعا بالحاضر وألا يفكرا في الغد.

خرجت من الحمام والكآبة تعلو وجهها، ثم ارتدت ملابسها وخرجت

للقائه.

حالما رآها سألها غراي وهو يحيطها بذراعه ويجذبها إليه: «لماذا الاستياء؟ هل لأنني لم أعانقك؟ أردت ذلك صدقيني، لكنني اعتدت سماع شقيقاتي يتذمرن من الشبان الذين يندفعون إلى معانقتهن بأسرع مما ينبغي».

ـ مشكلتي...

وسكت ليعانقها بنعومة.

ـ مشكلتي هي أنني حالما أعانقك أرغب بالمزيد، والحواجز التي وضعتها بيننا صعبة عليّ.

وعاد يعانقها مرة أخرى وهو يمرر يديه على شعرها.

وأغمضت لوسيا عينيها ونسيت الأفكار التي عذبتها.

* * *

غادرا المنزل إلى الشارع.

فقال: «لقد تأخرنا على الغداء، فلنأخذ بعض الشطائر نهدىء بها جوعنا حتى يحين وقت العشاء».

ـ أي نوع من الشطائر هنا؟

ـ شطائر محمصة بالجبن. أو ربما غير ذلك كما سنرى في القائمة، هل يوافقك ذلك؟

ـ رائع تماماً.

كانت المقاهي تغصّ بالزبائن المنهمكين بالثرثرة أو قراءة الصحف أو مراقبة المارة.

وجدا مقهى قليل الازدحام. أحضر لهما النادل قائمة الطعام فطلبا قهوة ليشرباها أثناء اختيارهما لما يأكلان.

وعندما اختارا وجاءت القهوة، قال: «لا يمكنني أن أرجىء الأمر بعد الآن... إنها ساعة قول الحقيقة... حيث أضع أوراقي على الطاولة

www.liilas.com
المحروسة

وتقرأين أنت حظي».

لم تفهم تماماً ما عناه بهذا القول لكنها قررت أن تمسك لسانها وتدعه يسترسل في الشرح دون مقاطعة أو سؤال.

ـ كنت أعيش كذبة كبرى معظم حياتي كإنسان راشد.

أكمل وقد بان الجد في عينيه الرماديتين: «ولأسباب مختلفة، تظاهرت بأنني شخص غير ما أنا عليه... ولا ما أتمنى أن أكونه. كنت في الجامعة، ولم أفكر جدياً في بقية حياتي. لقد افترض والداي دوماً أني سأعمل مع أبي في عمل الأسرة وقد سُرِرْتُ لذلك لأنني لم أجد شيئاً أكثر جاذبية أمامي».

عاد الناذل بسلة خبز طازج وبيض وزبدة، قائلاً: «تفضلا يا سيدي... وسيدتي».

وفيما راحا يفشران البيض، قال غراي: «وبدأت أدرك أن هناك أموراً أخرى في الحياة غير التي تعيشها أسرتي وأكثر أصدقائها. لم يكن كل الاشخاص مهووسين بالعمل ولعب الغولف مثل أبي والرجال الذين يختلط بهم. كانت هناك أمور أخرى».

وعندما أخذ يمسح الخبز بالزبدة، شعرت لوسيا، للمرة الثانية برغبة في رسم هاتين اليدين القويتين اللتين يمكن للمساتهما أن تكون رقيقة أو حازمة.

ـ باختصار أردت أن أخرج من القالب الذي صنعه جدي، لكنني لم أكن اعرف ما أريد ولم أكن قادراً على أن أقدم بديلاً ايجابياً عن خططه الموضوعة لي. لم تكن هناك فائدة من مقاومة الضغوط التي مورست عليّ لكي أتصرف وفقاً لرغبته. ربما كان علي تركه وشق طريقي الخاص في الحياة، لكن ذلك قد يسبب ضيقاً وانزعاجاً بالغيْن. هلْ كلامي مفهوم؟؟

فقالت: «طبعاً».

ـ لعل القوى التي تؤثر في حياة الناس غريبة جداً ومعقدة. كنت دوماً

أحب الأسفار، ولم يكن هناك سبب يدعوني للسفر. أما الآن فلدي سبب لكن ما الفائدة فهناك سبب بمثل قوته يجعله غير ممكن.

وسكت ليرشف من قهوته ثم تابع: «لم أجد ما يسمونه سبب الوجود، إلا بعد أن بلغت أواخر العشرينات من عمري، حيث بدأت أهتم جدياً بالرسم، صرت أتعلم كل شيء عنه، وأزور اكبر معارض الفنون في العالم كلما سنحت لي فرصة لأملأ بعض الفراغ في حياتي. وأخيراً، قادني ذلك إلى السبب الثاني لوجودي.. إليك أنت يا حلوتي».

أجفلت، وغصت بقطعة خبز. وحين استطاعت التنفس، قالت بصوت أجش: «أنا؟».

فأجاب برصانة: «أنت. لكن المشكلة هي أني لست من تظنينه. أريد أن انقطع عن الماضي... والحاضر. أريد أن أبدأ حياة جديدة. ولكن ليس الحياة التي تحب أكثر النساء المشاركة فيها».

كانت لا تزال تفكر فيما قاله قبل لحظات فسألته، لتمنح نفسها وقتاً تستجمع فيه شتات أفكارها: «ما الذي تريد فعله؟».

ـ أولاً، أريد أن أتخلى عن أعمالي... وألاّ أستمر في إدارة الشركة. ذلك سيفزع أمي ولن يسر أخواتي، فجوليا تتوقع مني أن أحتفظ بمقعدي في الشركة لابنها الأكبر الذي يبدو حريصاً على هذا الأمر. حتى لو أصبحت أمي في عامها التسعين، فستحصل دوماً على دخل جيد، ولكن بقية أفراد الأسرة سيكونون أقل يسراً، ولن يسرّوا إذا انقطع دخلهم من شركة كلدروود، كما سيحدث إذا استقلت.

فقالت: «لا أظنهم يتوقعون منك أن تتابع القيام بعمل لمجرد أنه يجعل حياتهم أكثر راحة. ماذا تريد أن تفعل بدلاً من ذلك؟».

ـ أريد أن أقيم معرضاً للفنون، ليس في لندن وإنما في الأرياف. لكنني لا أريد إدارته بنفسي لأني أنوي القيام برحلات حول العالم ومعرفة المزيد عن الحضارات الأخرى. كما سأتاجر باللوحات الفنية وسأضع

www.liilas.com

لذلك عرضاً دائماً على شبكة الانترنيت. الاصدقاء القلائل الذين حدثتهم عن ذلك ظنوا أنني مجنون، ولعلك أنت تظنين كذلك أيضاً.

- أظنها فكرة رائعة ويسعدني جداً أن أساعدك في تنفيذها، إن شئت. أليس هو المعرض نفسه الذي سبق أن تحدثت عنه حين تناولنا العشاء؟

- نعم. لكننا، لم نكن على وفاق آنذاك كما نحن الآن. أريدك أن تساعديني، ولكن ليس بصفة صديقة أو مديرة للمعرض، بل أن تسافري معي بصفتك... زوجتي. فأنا أحبك يا لوسيا وأريدك أن تكوني جزءاً من حياتي الجديدة، لكنني أعرف أن هذا يتطلب منك الكثير... أن تضحي بالكثير مما تريده المرأة وتحتاج إليه.

فسألته حائرة: «مثل ماذا؟».

- المرأة تحب الإستقرار بطبيعتها. فهي تبحث عن مكان تستقر فيه وتكون آمنة.

فقالت: «أنت تطلق كلاماً عاماً، لا ينطبق على كافة النساء. كم امرأة كما تصفها، كانت في السجن؟ ولا واحدة».

ولوت شفتيها، ثم مالت نحوه وهي تجذب نفساً عميقاً: «لا أريد سوى شيء واحد، هو أن تحبني بقدر ما أحبك».

فأمسك بيدها: «يا حبيبتي، أنت تشعرين بهذا الآن، لكن الحياة طويلة... أنت بحاجة إلى التفكير في كل هذه النواحي قبل أن تلزمي نفسك».

- لقد سبق والتزمت، منذ وقت طويل. فأنا لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن للمرء أن يعطي قلبه لشخص غير مناسب. لا تقل إنني لست كذلك لأننا، نحن الاثنين، نعرف أنني كذلك.

- ربما غير مناسبة للرجل الذي كنت أحاول أن أكونه، وليس لغراي كلدر وود الحقيقي. أنت لم تعرفيه بعد.

- عرفته بعض الشيء.

ومدت يدها تلامس خده بأصابعها: «لن نبقى على حالنا بعد عشرة أو عشرين أو ثلاثين عاماً. ولكن إذا كبرنا وتغيرنا معاً، فيكفينا أن يبقى شعورنا تجاه بعضنا على حاله. وعندما نصبح في عمر أمك، سيكون حالنا كما هو الآن».

فقال: «وهذا ما سأرجوه بكل تأكيد. لكنه أحد الأسباب التي تدفعني لأن أهتم بألاّ تدعي مشاعرك تعميك... كما فعلت أمي».

- لا أدري إذا كانت عمياء حقاً، أو أنها في أعماقها، كانت تشعر بأنها لا تملك من الموهبة ما يجعلها فنانة ذات أهمية. أنا أعلم أنني لا أملك تلك الرؤية الملهمة للعالم. وربما كانت روز ماري تعرف ذلك أيضاً عن نفسها، ولعل زواجها من أبيك جعل من الأسهل عليها تقبل الأمر. إن من الصعب جداً أن يعترف الشخص لنفسه بأنه لن يصل أبداً إلى الدرجة الأولى.

فقال: «هذا أحد الأشياء التي أحبها فيك، وهو احترامك لاحساس الآخرين، فأنت لن تجرحيها أبداً بجعلها تفهم أنك تعلمين بضعف موهبتها. الشخص الوحيد الذي لم تراعيه هو أنا، وأظنني كنت قاسياً معك تماماً في البداية».

فقالت ضاحكة: «كنت فظيعاً. ولكن كان عليك أن تكون كذلك، سأحاول جاهدة أن أعوض خسارتك بسببي. متى ستخبر أسرتك بهذا؟».

- حالما يقوم جورج بفحص أمي ويخبرني النتيجة سأقدم استقالتي من الشركة. أما بالنسبة إليك فسأطلعها على الأمر حالاً، فهذا أمر لا يمكن كتمانه. إن ما يجعلني أحتمل وضعي مدة أطول هو قضاء أمسياتي ولياليّ معك.

تركا المقهى وأخذا يتمشيان، وهما يستعيدان النقاط الهامة في علاقتهما ويوضحان السبب الذي جعلهما يتصرفان هكذا، فيضللان مشاعر بعضهما البعض.

www.liilas.com

قال: «في آخر مرة جئت فيها إلى هنا، كنت وحيداً. ورأيت فتاة متكئة إلى تلك الشجرة وشاب يعانقها ما جعلني أتساءل إلى متى سأعيش وحدي؟ كانت حياتي غير طبيعية، بصفتي أعزب. خلق الرجال والنساء ليعيشوا أزواجاً، ألا تظنين هذا؟».

ـ أوافقك على ذلك من دون تحفظ.

وقادها نحو الشجرة حيث وضع ذراعيه حولها ويديه على الشجرة وأخذ يعانقها.

وقال متمتماً: «معانقة شجرة بهذا الشكل تتخذ معنى جديداً كلياً».

وضعت ذراعيها حول خصره غير مهتمة بمن قد يراها... وقالت: «من الصعب أن أتصورك وأنت تشعر بالوحدة، فأنت تبدو مكتفياً ذاتياً».

ومالت عليه، فشعرت بصدره سنداً أكثر راحة من جذع الشجرة، وقال: «هذا ما أرجوه... في الأمور الهامة».

وأسند ذقنه على رأسها وطوق خصرها بذراعيه: «الناس الذين لا هوايات لديهم يمكن أن يكونوا مصدر إزعاج لكل شخص في الأوقات النادرة التي لم يستطع فيها أبي الذهاب إلى العمل أو لعب الغولف، كان يسبب الجنون لكل من حوله. لم يكن يقرأ، أو يسمع الموسيقى، بل يتمشى في ساحة الغولف. وعندما بلغت سن الرشد وعشت لوحدي، أدركت أن أي امرأة بجمال أمي ومهارتها الاجتماعية، كانت قادرة على إرضائه. وتمنيت أحياناً لو كنت مثله في هذا».

ورفع ذقنها ينظر إلى وجهها: «لكنني كنت أبحث عن امرأة غير عادية، وكدت أيأس من العثور عليها. وعندما رأيتك، لم أقع في الحب من أول نظرة. هل تعلمين لو أنك لم تتحديني في ذلك اليوم... لو أنك أخذت الشيك وامتثلت لأمري، لما جذبتني بهذا الشكل؟ والآن، لا أستطيع احتمال فكرة أنك ستصبحين وحيدة في هذا العالم، من دون من يحبك ويحميك».

وفيما بعد، تناولا العشاء في مطعم قريب، بني في القرن التاسع عشر، كما أخبرها غراي. كانت الأرض خشبية وجدرانه مبطنة تزينها مرايا ضخمة، كما تدلت من السقف ثريات مذهبة. وكان مستخدموه يرتدون مآزر بيضاء كبيرة.

ويقدم المطبخ أطباقاً تقليدية من لحم البط المنقوع في الخل، أو الفاصوليا البيضاء التقليدية، أو السجق ويخنة البط. قال غراي: «اخترعوا اليخنة لتشبع شهية عمال البلاد الذين يقومون بالأعمال الشاقة».

فقالت: «بالرغم مما أكلته من البيض، أشعر بالجوع الشديد. لعل الحب زاد من شهيتي».

ـ لا تقلقي، فالحب يزيد الطاقة. على أي حال، سوف يناسبك أن يزيد وزنك قليلاً. فالمرأة الممتلئة أكثر جاذبية من النحيفات اللواتي يظهرن في مجلات الأزياء.

ورغم اقترابها الآن من السعادة الكاملة، شعرت أن التفكير في ردة فعل أسرته كان بمثابة غيمة كثيفة سوداء في سمائها، يمكن تجاهلها ببعض الوقت، لكنها لن تتبدد.

وكل ما ترجوه هو ألا يكون ثمة عاصفة تتجمع في الأفق. فإن هبت لا بد أن تترك خلفها دماراً وخزياً بالغاً من المشاعر المنكسرة حتى لو لم تحطم حبهما.

* * *

١٦ ـ في السرّاء والضراء

اختارت لوسيا ثوب زفاف من قماش الكريب الأبيض، طويل الكمين، وفصل بإتقان على جسدها. ستضع عقداً من اللؤلؤ اهدتها إياه برادي وهي تخاطبها: «اقبليه مني يا عزيزتي. ليس لدي بنات أو بنات أخ أو أخت لأورثهن إياه، وعنقي قد غلُظ. سيسرني أن أراه يتألق على عنقك الفتي الجميل».

كانت السيدة كلدروود ترغب بإقامة العرس في كنيسة أبرشيتها وحفلة الاستقبال في لاركوود. ورغم أنه سبق ونظمت أعراس بناتها الثلاث، إلا أن أملها خاب عندما أصر غراي على إقامة مراسم زواج مدني هادىء وحفل استقبال يقتصر على الأسرة والأصدقاء الحميمين في فندق في لندن، قبل أن يتجها، هو ولوسيا، لقضاء شهر عسل في مكان سري.

لم تعرف لوسيا ما إذا كان أمل حماتها قد خاب حقاً، أم أنها تتظاهر بالشجاعة تقديراً للوضع. كما بدا من الصعب التأكد من مشاعر أخوات غراي. كانت شقيقتاه الكبيرتان، مثل أمهما، تشعران بأن ليس من حسن السلوك أن يظهرا عدم الرضا. فإذا صمم غراي على الزواج، عليهما أن يقبلا برقة وسرور مهما كان شعورهما الخاص.

والصدمة الأسوأ بالنسبة لهن كانت اعلان غراي استقالته من مجلس إدارة الشركة. كانت تلك الضربة الأقسى لهن جميعاً وقد جثن كلهن ليرجونها سراً، أن تقنعه بالعدول عن الأمر. ولا تعتقد أنهن صدقنها عندما

قالت: «سعادة غراي هي الأهم عندي... وأظنه عاقلاً وحكيماً بما يكفي ليقرر ما هو الأفضل له».

عند ذلك الجواب، قالت جيني، وهي الأكثر جرأة بينهن: «أظنه مجنوناً. إذا ترك الشركة فستتحطم... كما يحصل عندما تتلاشى القوة الدافعة. يعجبني فيك رغبتك في السير معه لتنفيذ هذه الفكرة الغبية، لكنني أظنكما ستندمان».

فقالت لها لوسيا: «هناك أمر واحد ندمت عليه. وتلك الأشهر الفظيعة في السجن كانت ثمناً صغيراً دفعته لقضاء بقية حياتي مع غراي».

كانت تتذكر ذلك النقاش وهي تمسك بالقبعة العريضة المصنوعة من القش الأبيض الفاخر والمزينة بشرائط من الحرير الأبيض تنتهي بعقدة على شكل فراشة كبيرة منشاة من الأمام.

حين وضعتها على رأسها بعناية، تساءلت عما إذا كانت جيني محقة، وأن خطة غراي، بعد حين ستبدو لهما غبية. لكن بالنسبة إليها ما من شيء يستحق الاهتمام إلا ما يريده غراي. الزواج اتحاد، وعلى كل طرف أن يبذل جهده لمساعدة الآخر في الحصول على ما يريد، سواء كان ذلك أمراً غبياً أم لا.

على أي حال، كانت واثقة تماماً من أنه إذا لم تنجح خطته حسب رغبته، فسيضع بسرعة خطة أخرى. فهو من الرجال الذين تشعر معهم بالأمان مهما تغيرت الأحوال.

لم يكترثا بالكثير من تقاليد الزفاف، وخططا للأمر وفق رغبتهما. كانا قد أمضيا الليلة منفصلين، غراي في العركب، ولوسيا في الفندق الذي أقاما فيه الليلة الماضية حفلة لبعض أصدقائه من غير المدعوين إلى حفل الزفاف.

رن جرس التليفون بجانب السرير، فرفعت لوسيا السماعة.

ـ آلو؟

ـ السيد كلدروود في الردهة، يا آنسة غراهام.

ـ أرجو إبلاغه بأنني سأكون عنده بعد لحظة.

لم يكن ثمة أحد معها في المصعد الذي أوصلها إلى الردهة. تمنت ألا يكون غراي ينتوقع ثوب عرس بتنورة واسعة، ونقاباً شفافاً، جربت مجموعة من أثواب الزفاف ولم يعجبها سوى هذا.

عندما انفتح باب المصعد، كان يدير ظهره يقوم بجولة في أنحاء الردهة، كان يرتدي بذلة رمادية فاتحة لم ترها عليه من قبل. تفصيلها الممتاز أبرز عرض كتفيه واستقامة ظهره. كلما نظرت إليه، ومهما كانت الملابس التي يرتديها، ترى جسده القوي الرائع. وهذا لا يعني أنه سيضطر إلى ارتداء بذلة العمل الرسمية لفترة طويلة، فمن الآن فصاعداً يمكنه ارتداء ما يريد.

عندما خرجت من المصعد، التفت، ورآها فتقدم نحوها بخطوات واسعة يأخذه الشوق الذي يترافق دوماً مع خفقان قلبها. ما زالت لا تستطيع أن تصدق أن هذا الرجل يريدها.

قال وهو يرفع يديها إلى شفتيه:

ـ لا تخافي. لن أفسد حمرة شفتيك أو أميل بتنعتك جانباً، فأنا أكثر حكمة من أن أفعل ذلك.

كان يضع ربطة عنق حريرية صفراء باهتة وقرنفلة صفراء في عروة السترة.

وأضاف: «اشتقت إليك. في السنوات الخمسين المقبلة، دعينا نمضي بعض الليالي متباعدين قدر الإمكان».

ـ تبدو لي فكرة جيدة... ولكن لعلي اسأت اختيار هذه القبعة التي متعتك من تقبيلي.

ـ قبلة حذرة إذن.

أحنى رأسه متجنباً حافة القبعة، ثم طبع على خدها قبلة ناعمة.

ثم استقام وهو يقول: «تبدين خلابة».

عندما ينظر إليها بهذا الشكل، تشعر بأنها خلابة فعلاً. وتساءلت عما يجعلها تظن أن عينيه باردتان وملامحه قاسية.

ـ سيارة الأجرة تنتظرنا. فلنذهب.

ووقف وقفة عسكرية ثم قدم لها ذراعه فأمسكتها وهي تشعر بقوة عضلاته تحت ملابسه الغالية الثمن.

ما زالت تجهل أين سيمضيان الليلة، لكنها لم تكن بحاجة لأن تعرف، فأي مكان يختاره غراي سيعجبها تماماً. ستبقى توقع لوحاتها باسم «لوسيا غراهام» وستبقى دوماً هي ذاتها، ولكنها سترتبط دوماً روحاً وجسداً، بغراي.

ساعدها على ركوب سيارة الأجرة ثم صعد إلى جانبها، وعندما تحركت بهما السيارة، أمسك بيدها شابكاً أصابعه بأصابعها.

الدقيقة الأخيرة من التوتر التي توقعت لوسيا أن تشعر بها، لم تمر، وأدركت أنها لم تعد قلقة لرأي حماتها. وفجأة، ملأتها الثقة بالنفس، وتملكها الارتياح والشعور بالبهجة، فهذه أسعد لحظة في حياتها، فهي عروس في طريقها إلى حفل زفافها.

* * *

www.liilas.com